محمد عز الدين التازي

مكاننا في مكان آخر

رواية

الكتاب:مكاننا في مكان آخر (رواية)
الكاتب:مُحَمَّد عز الدين التازي
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

التازي، مُحَمَّد عز الدين
مكاننا في مكان آخر (رواية) / مُحَمَّد عز الدين التازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٣ ص، ١٨*٢١سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٥٧١ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٧٣٧ / ٢٠٢٢

مكاننا في مكان آخر

رواية



"واعلم أيها الأديب الأريب أنك تخلق كائناتك من ربيع وخريف الأيام، ومن وعثاء السفر وحرائق الأوهام، ومن الريح والزمهرير ومن الخرير والصرير ومن الوقت وما بين الحياة والموت، ومما تلاشى فلم يبق له سوى ومض في الذاكرة، ومن تحف الصور ومتاهات الأخيلة، لا تقسو على كائناتك ولا ترق لها، ومن فرط معايشتك لها فأنت إن غبت عنها تشتاق إليها وتحن، تفرح لفرحها وتحزن لحزنها، تشتهي ما تشتهيه وتشترك معها فيما أنت وهي فيه، تسكنها وتسكنك، تطمئن إليها وتطمئن إليك، تشعر بها وتشعر بك، تراودها وتراودك، تقيم في حيواتها كما هي تقيم في حياتك، تبتهج لابتهاجها وتحزن لأحزانها، وإن هي إلا شخصيات أتتك من الخيال، فألبستها لبوس الواقع، وأخرجتها على غير مثال، كان الله لي لك وللورّاق ولقارئ هذه الأوراق"

ابن ضربان الشرياقي

في دارة جلجل

ربيعة

دخلنا أنا ومروان ووسيمة قاعة الاجتماع. قبل أن أتناول الكلمة رن هاتفي المحمول. وجدت رقما لا أعرف صاحبه. فتحت الخط. سمعت صوت امرأة وهي تقول:

ـ آلو. السي عبد الوهاب؟

قلت لها:

ـ أنا هو.

قالت بصوت ممطوط وبشيء من الدلال:

ـ أهلا بك آ السي عبد الوهاب.

تطلع إليَّ كل من مروان ونسيمة. سألتُمن تتحدث معي:

ـ من؟

ضحكت وقالت:

ـ من تتوقع؟ هل تنتظر مكالمة من امرأة؟

تطلع إليَّ كل من مروان ونسيمة، وبدت عليهما نظرات الفضول. أحسست بالحرج. قلت لها:

. يا مدام، أنا في اجتماع، ولا وقت لي.

قالت:

. ومتى يكون لك الوقت؟ هل أنت في دارة جلجل؟

زاد تطلع مروان ونسيمة إليّ عندما سمعا مخاطبتي تسألني هل أنا في دارة جلجل. فهمت من نظراتهما أنهما قد حسبا المكالمة تعني شيئا من عملهما معي في الدارة. شككت في نوايا المرأة وسألتها:

. هل لك علاقة بدارة جلجل؟

وضعت نسيمة الأوراق التي بين يديها وركزت بنظراتها عليَّ. قالت مخاطبتي في الهاتف:

. سمعت عنها.

سألتها:

. ممن؟

قالت:

. من أناس تتعامل معهم، وهم يحبونك ويحترمونك، فلا تقلق.

خفض مروان ونسيمة رأسيهما وكل واحد منهما يتفادى النظر إليّ حتى لا أصاب بالحرج. قلت لها:

. يا مدام لست قلقا، لكني أحب أن تعرفيني بنفسك.

قالت:

. لا تستعجل آ السي عبد الوهاب، حتى وإن كانت أيام العمر قصيرة فالعجلة تضر ولا تنفع.

قلت لها:

. أنا لا أتعجل في أمر من الأمور، لكني الآن في اجتماع، ولا وقت لي لسماع نصائح أحد.

قالت:

. أنت صاحب العقل، ولا أحد يتجرأ على أن ينصحك.

سألتها:

. هل تعرفينني؟

. قالت:

. إذا شئت، فأنا أحب أن أتعرف عليك.

سألتها:

. وما هي المناسبة؟

قالت:

. في الحقيقة هناك مناسبة، وحتى بدونها فأنا أرغب في أن أتعرف عليك.

قلت لها:

. يا مدام أنت تتكتمين على نفسك.

قالت:

. أنا ربيعة السعدي.

زاد فضول مروان ونسيمة. رفعا رأسيهما وتطلعا إليّ بنظراتهما بعد أن سمعا الاسم. حاولت أن أسترجع أسماء من عرفتهن، فلم أجد من بينهن من تحمل اسم ربيعة السعدي. سألت مروان ونسيمة:

. هل سبق أن اتصلت بكما سيدة اسمها ربيعة السعدي؟

حركا رأسيهما بالنفي. سألتها:

. من أعطاك رقم هاتفي؟

قالت:

. إن أراد أحد أن يقصدك فسيجد الطريق إليك.

سألتها:

. تقصدينني في ماذا؟

قالت:

. قبل حين قلت لك لا تتعجل.

توترت أعصابي. حسبت في المكالمة تآمرا نظمته طليقتي رجاء بوجمعة مع إحداهن. بدا عليَّ القلق، ومروان ووسيمة يتابعان المكالمة. قلت لها بحزم:

ـ ألا تقولين ما تقصدينني من أجله؟

قالت:

ـ آ السي عبد الوهاب لا تهول الأمر. سوف تعرف كل شيء، وبالتفصيل.

فتح الباب حميد، المكلف بالتسوق لمطعم الدارة، ووقف أمامنا. قدم لمروان بعض الفواتير ليقوم بمراجعتها. نظرت نحوه نظرة عتاب لكونه دخل مكتب الاجتماع دون استئذان. قطعت الخط. تنفست الصعداء، وحاولت أن أستعيد هدوئي. اعتذرت لمروان ونسيمة عن المكالمة التي جاءت قبل أن يبدأ الاجتماع. فتحت نسيمة الأوراق التي أمامها وهمت بأن تقرأ ما فيها. رن الهاتف. نفس الرقم السابق. تركته يرن لبعض الوقت، ثم قطعت الخط. رأيت في عيني مروان ونسيمة شيئا من القلق، عاد الهاتف إلى الرنين. قلت:

ـ هذا يوم ربيعة!

أبدى مروان ونسيمة تأففهما. نويت أن أوبخ هذه السيدة على ما تقوم به من إزعاج لنا في وقت العمل، وعندما فتحته بادرتْ إلى القول:

ـ السي عبد الوهاب، أرجو ألا تغضب مني. أنا أعتذر لك، وأطلب منك أن تظن بي خيرا. سامحني من فضلك.

قلت لها متأففا:

ـ مع السلامة.

ثم قطعت الخط. بقي التوتر باديا عليّ وأنا أرى نظرات الشك

والفضول في عيني مروان ونسيمة. قدمت نسيمة تقريرها حول وفد السياح الألمان الذي سوف نستقبله خلال الأسبوع القادم، وتحدث مروان عن الاستعداد الجاري لاستقبالهم، من مطار فاس . وإلى حين عودتهم إلى المطار، وقدم برنامجا مفصلا لقوائم الطعام وأماكن الزيارة والسهرات التي سوف نحييها لهم. خرجنا من المكتب، وقمنا بجولة في مرافق الدارة، تفقدنا خلالها الغرف، والحمام البلدي، والمطعم، وقاعة العروض، وكان كل العمال واقفين ينتظرون أسئلتنا أو ملاحظاتنا. كنت خلال كل ذلك أشعر بشيء من الاضطراب بسبب المكالمة الغامضة التي تلقيتها، كما كنت محرجا تجاه مروان ونسيمة، رغم ما يعرفانه عني من جدية في العلاقات، وخاصة مع النساء.

عندما انتهيت من عملي عدت إلى مكتبي. طلبت قهوة مركزة، وأخذني التفكير إلى ربيعة السعدي، من تكون، وماذا تريد، ثم هونت الأمر، ورأيت أن أتعامل معها بشيء من الصرامة إن هي عادت إلى الاتصال.

في آخر المساء قصدت المطعم وجلست إلى مائدة. طلبت من النادل شربة خضر وسمكا مشويا وفاكهة. أقبل سائحان إسبانيان، الشاب يخاصر الشابة وهي تتمايل. جلسا إلى مائدة بجواري وهما يضحكان ويثرثران، وبين حين وآخر يتبادلان قبلات حرى غير مباليين بوجودي وبوجود سياح آخرين يجلسون إلى الموائد. بعد أن تناولت طعام العشاء غادرت الدارة وعدت إلى الشقة التي أقيم فيها. أحسست بالوحشة، فأنا المقيم الوحيد في عمارة توجد بها عشرون شقة، كلها فارغة، لكونها معروضة للبيع. فراغ كبير استحوذ عليّ، رأيت أن أملأه بتشغيل جهاز التلفزيون. تنقلت بين القنوات فلم أجد برنامجا يشدني إليه. بدأت أشعر بالعزلة والاكتئاب. شعور يعتريني كلما عدت إلى

من الدارة إلى الشقة الكئيبة. وأنا أتهيأ للنوم، جاءتني مكالمة من ربيعة. قالت لي:

. السي عبد الوهاب، أما تزال غاضبا مني؟

قلت لها:

. أنا لا أغضب من أحد، لكني لا أحب المكالمات الغامضة التي لا يفصح أصحابها عن هوياتهم.

قالت:

. أجدد لك اعتذاري، وستعرف من أنا وماذا أريد.

قلت لها:

. أخبريني، من أنتِ وماذا تريدين؟

سألتني:

. هل استرحت من تعب اليوم؟

قلت لها:

. راحة مؤقتة، ريثما يأتي تعب يوم آخر. ها أنتِ تراوغين مرة أخرى. من أعطاك رقم هاتفي؟

قالت:

. شخص تتعامل معه، اسمه يبدأ بحرف الطاء. هل عرفته؟ إذا لم يسعفك حرف الطاء الذي يبدأ به اسمه فهو ينتهي بحرف العين.

هتفت:

ـ الطايع؟

قالت:

ـ ها قد عرفته. السي الطايع زوج ابنة خالتي. هو من حدثني عنك، وأعطاني رقم هاتفك. والآن، هل عرفت ما أقصد؟ قصدي أن أشتري واحدة من الشقق التي تعرضها للبيع.

قلت لها:

ـ ليتك يا مدام لم تراوغي وأتيتِ إلى الكلام من آخره.

قالت:

ـ أنا امرأة تحب المزاح، وقد أردت أن أمازحك. وأرجو ألا تكون قد أسأت الظن بي.

أردت أن أنهي المكالمة لأخلد إلى راحتي فسألتها:

ـ هل ترغبن في رؤية الشقة؟

قالت:

ـ ذلك ما أريد.

قلت لها:

ـ الطايع يحدد لك موعدا. تصبحين على خير.

قطعتُ الخط. فكرت في أن المرأة في حياتي، وبعد ما عانيته من رجاء

بوجمعة، قد أصبحت لا تعطي الأمان، لما يأتي معها من أهوال ومصائب، وها هي امرأة تقول إنها ترغب في شراء شقة وقد تكون لها النية في أن تقتحم حياتي، فأوصيت نفسي بالحذر.

اتصلت بالطايع وباغته بالسؤال:

ـ من هي ربيعة السعدي؟

رد عليَّ وهو يضحك:

ـ هل اتصلت بك؟ ربيعة ستكون واحدة من زبائنك.

سألته:

ـ ولماذا لم تكن أنت من يخبرني برغبتها في شراء شقة؟

قال:

"إنما أردت آ السي عبد الوهاب أن أجعل الاتصال مباشرا بينكما. أعرف أن عمولتي سوف تكون مضمونة عندك. ربيعة ابنة خالة زوجتي، وأنا أعطيتها رقم الهاتف وشجعتها على الاتصال بك. هي وزوجها في ضيافتي. هما يعيشان في فرنسا ويرغبان في العودة إلى المغرب، لذلك شجعتها على اقتناء شقة".

قلت له:

ـ إذا كانت السيدة ترغب في مشاهدة الشقة فأخبرها بأن تأتي في صباح الغد لمشاهدتها، وإن أعجبتها وقررت الشراء تذهب عند الموثق الأستاذ نبيل معاش ليحرر عقد البيع الأولي.

حددت له الموعد في الساعة العاشرة. قال:

. سوف أعطيها عنوان العمارة، وستأتي لمشاهدة الشقة ومعها زوجها محمد بوفراح.

قلت له:

. لتأت مع من تشاء.

في تلك الليلة، وفي آخر الليل، وأنا أتثاءب، وأقترب من الدخول في النوم، أتتني مكالمة أخرى من ربيعة. قالت لي بصوت أغن:

"السي عبد الوهاب. انتظرت أن تحدد لي موعد مشاهدة الشقة بنفسك، لكنك فضلت أن يبقى السي الطايع هو الوسيط بيننا. لقد أخبرني بالموعد. لا بأس. معك الحق، فأنت لم تعرفني بعد، ومن حقك أن تحتاط من امرأة اقتحمت عليك حياتك وكأنها نزلت من السماء. في هذا الليل، وأنا في فاس، جفاني النوم. أعرف أننا سنلتقي في صباح الغد، لكني شعرت برغبة في الحديث معك. أنا الآن أقف في الشرفة، أشم هواء فاس الوافد من جبل زالغ. أخبرك السي الطايع بأننا أنا ومحمد بوفراح في ضيافته. في صباح هذا اليوم زرت أنا وابنة خالتي لالة زينب (ضريح مولاي إدريس) وقدمت النذور للولي الصالح عساه يعطني بركته ويُشفيني من مرضي. عدنا إلى الدار، فقدمت لنا لالة زينب عشاء احتفاليا. أتأسف لكونك لم تكن حاضرا معنا، ولو حضرت لسريت عن نفسك وشاركتنا في الضحك وحكاية النكات. أنا أضحكت السي الطايع حتى وضع يده على قلبه وأخذ يشهق فخفنا عليه من أن يصاب نوبة قلبية، أما بوفراح فقد بقي جامدا، مثل حجر، لم

تضحكه النكات ولم تنتقل إليه عدوى الضحك. رجل جهم. ستراه في الغد، رغم أن رؤيته وهو متجهم لا تُفرح أحدا. خلال السهر جرى الحديث عنك، وعندما اقترح عليَّ السي الطايع شراء شقة في إحدى العمارات التي تبيع فيها الشقق، وذكر نبلك وخصالك، رغبت في رؤيتك والتعرف عليك، فمعرفة الرجال كنوز كما يقولون. أرجو ألا أكون قد أغضبتك عندما اتصلت بك في صباح هذا اليوم. ربما كان عليَّ أن أباشر الحديث معك حول شراء الشقة، لكن طريقتي في الحديث، ورغبتي في الضحك والإضحاك، لم تجد عندك تجاوبا. أعتذر لك مجددا، وها قد عرفت قصدي، فلا تقلق من ناحيتي. تأسفت لكون السي الطايع لم يدعك للعشاء معنا. هو نفسه عاد إلى البيت متأخرا، فوجدنا نتناول الطعام. اشترك معنا فيه، شممنا منه رائحة الخمر وتجاهلنا ذلك. عرفنا أنه عاد من حانة كان يشرب فيها. لم يسيء الأدب معنا. شاركنا في الضحك. قضينا السهرة إلى أن داعبنا النوم فأدخلتنا ابنة خالتي لالة زينب غرفة نمنا فيها أنا ومُحَّد بوفراح في فراشين منفصلين، لأنني لا أضطجع معه في فراش واحد. سوف تعرف آ السي عبد الوهاب كل شيء عن علاقتي به، فلا هو زوجي ولا هو قريبي، وإنما هي الظروف سلطته عليّ، وستعرف ما هي تلك الظروف فيما بعد. سامحني الله، فقد ادعيت أمام لالة زينب أنه زوجي، وهي أخبرت السي الطايع بذلك. في الحقيقة، أنا أسايره إلى أن أتمكن من التخلص منه. هل أطلت عليك في الحديث؟".

قلت لها:

ـ لا بأس، أنا أسمعك.

قالت:

"أنا خرجت إلى الشرفة لكي أتحدث معك، ثم أغلقت عليَّ الباب من الخارج حتى لا يسمع مُحَمَّد بوفراح حديثي معك، لكني رأيته وهو يراقبني ويمد أذنه. السي عبد الوهاب تصبح على خير. نلتقي في صباح الغد".

قطعت الخط.جفاني النوم. أخذت أفكر في هاته المرأة التي تتحدث بكل ما يأتي على لسانها، متحررة من أية رقابة كيفهما كانت، كما أنها تحدثني وكأني قريب لها، وقد حطمت كل الحدود، فبدأت تتصور أنني يمكن أن أجلس معها ومن ليس زوجا لها ومع أسرة الطايع على مائدة واحدة، بينما لا تجمعني معهم أية علاقة، فالطايع نفسه مجرد سمسار يأتيني بالزبائن ويأخذ عمولته.

عاد إليَّ توجسي بشأنها فحسبتها تنوي على شيء أبعد من شراء الشقة، رغم أن ليس من عادتي أن أشك في نوايا الآخرين، ثم أردت ألا أظلمها بحكم مسبق، ورأيت أن أنتظر ما يأتي به الغد.

في عزلتي ووحدتي، استرجعت نبرات صوتها الأغن، وضحكاتها. أقمت لها صورة في ذهني جمعتُ تفاصيلها من كل الإيحاءات التي أوحت إليَّ بها وهي تتحدث معي. حسبتها شابة حسناء، رشيقة القوام، شعرها ينسدل على كتفيها، وهي في كامل زينتها. الشعر مصفوف والعينان كحيلتان وأحمر الشفاه ذو لون وردي فاتح، وعطر فواح يفوح من حولها، ترتدي جلبابا أزرق يبرز النهدين وتفاصيل القوام، وتنتعل حذاء ذا كعب عال يزيد قامتها طولا.ثم خشيت أن أكون متفائلا بصورتها، فقد تكون مصفرة الوجه بارزة

الأنف ضامرة الخدين لا بريق في عينيها، ترتدي جلبابا مهلهلا وتحيط عنقها بشال باهت اللون.

سألت نفسي عن هذا الاهتمام بامرأة ليس بيني وبينها سوى أنها ترغب في شراء شقة من الشقق التي أعرضها للبيع، وخشيت أن أكون قد وقعت في فراغ عاطفي كبير جعلني أحلم بصورة المرأة وأعيش معها في الخيال، حتى وأنا محاط في الدارة بسائحات جميلات أتين من كل البلدان.

في صباح الغد، على الساعة العاشرة صباحا، خرجت من الشقة التي أقيم بها. أغلقت الباب. هبطت الأدراج. وقفت أنتظر عند باب العمارة. أتت ربيعة ومعها شاب نحيل أسمر، استقبلني بالعبوس، أشارت إليه ثم قالت:

- مُحَمَّد بوفراح.

أقبلت عليَّ. صافحتني بحرارة، وقد تركت يدها تمسك بيدي. نظرت إلى عينيَّ ووسعت عينيها. لم يصافحني الشاب النحيل، وبقي يكشر في وجهي. ألقيت نظرة خاطفة على قامتها الفارعة ووجهها المشرق وعينيها المتألقتين. كانت ترتدي جلبابا زاهي الألوان، وتضع على كتفها حقيبة نسائية. بقي مُحَمَّد بوفراح عابس الوجه، جامدا في وقوفه، ينظر إلى البعيد. أخذت تضحك، وتقترب مني كأنها تعرفني من وقت مضى، ثم قالت لي بابتهاج:

- السي عبد الوهاب! أنا سعيدة باللقاء بك.

قلت لها:

. مرحبا.

قالت:

. السي الطايع قال عنك إنك رجل طيب، وكريم.

قلت:

. بارك الله فيه.

قالت:

. خلال سهرة أمس، حدثنا عن المحن التي عشتها مع زوجتك السابقة، وعن صمودك.

لم أشأ أن أعبر لها عن استيائي من أنني قد أصبحت مضغة في الألسن، ولم يبق لي سوى أن يجعل الطايع من محنتي حديثا في سهرته. أدركت ذلك من خلال نظراتي، فقالت:

. ليس هناك من الناس من لم ينل حظه من المحن، لكن الإنسان القوي يتغلب عليها. من يضعف أمام المحن تتغلب عليه.

أبديت موافقتي بحركة من رأسي. قالت:

. أنا التي أمامك، إن حدثتك عن المحن التي عشتها فسوف يحتاج مني ذلك إلى أيام وأيام.

قال لها مُحَمَّد بوفراح:

. أنتِ كلما التقيت بأحد تجعلين من اللقاء معه مناسبة لتعرضي عليه حياتك، وكأن أحدا غيرك لم يعش ما عشته.

قالت له:

. أنا أفرج عن خاطري. ثم إنني لا أعرض حياتي على الغرباء، ولا أُشهر بأحد.

زم شفتيه، واقترب منها ثم قال لها:

. وهذا السيد، أليس غريبا عنكِ؟ ثم إنكتتكلمين عن التشهير بالآخرين، وكأنكِ تلمحين إليَّ بذلك.

قالت له:

.كن هادئا، فنحن مع رجل محترم.

قال لها:

. كم من مرة اقترحت عليك أن تحكي حياتك في فيديوهات نقوم بنشرها في اليوتيوب، لنربح من ذلك مالا بقدر عدد المشاهدات.

قالت له:

. أنا لست من المشاهير.

قال لها:

. من خلال الفيديوهات سوف تصبحين مشهورة، وستحصلين على

ملايين المشاهدات.

أشاحت بوجهها عنه وقالت له:

. ما نحن بصدده هو مشاهدة الشقة.

ثم التفتت نحوي وقالت لي:

. لن نبقى واقفين عند الباب.

دخلنا العمارة. صعدنا الأدراج. توقفنا عند الطابق الأول. هممت بأن أفتح باب إحدى الشقق، فقالت لي:

. آ السي عبد الوهاب، أريد شقة في الطابق الثاني.

قلت لها:

.كل شقق الطابقين الثاني والثالث قد بيعت، ولم تبق سوى شقة واحدة في الطابق الرابع، وأخرى في الطابق الأول.

قالت:

. هكذا يقول كل من يبيعون الشقق، والحقيقة أنهم يؤجلون بيع شقق الطابقين الثاني والثالث ويفتتحون البيع بالطابقين الأول والرابع.

قلت لها:

. يا مدام، هذا هو حال البيع والشراء.

ألحت على أن أجد لها شقة في الطابق الثاني، وعندما اعتذرت لها عن ذلك قالت:

. أختار الطابق الأول.

فتحت الباب. دخلنا الشقة. تجولت بين الغرفتين والصالون، ثم دخلت الحماموشاهدت المطبخ، بينما بقي مُحَّد بو فراح واقفا كالحجر، يتكئ على حائط وينظر إلى الأرض وهو ساهم. أبدت إعجابها بالشقة، وسألت إن كانت مسجلة ومحفظة، فأكدت لها ذلك، وأخبرتها بأن كل الوثائق توجد عند الموثق، وأن التصريح بثمن البيع مائة في المائة. قالت:

. أخبرني السي الطايع بثمن البيع، لكني أطلب مني أن تخفض لي مليون سنتيم.

اعتذرت عن عدم ذلك.أخذت تتفحصني بنظراتها وتبتسم، رفع مُحَّد بوفراح بصره عن الأرض ورآها تنظر إليَّ. اختلج نظره وزاد عبوسه. حدثتني عن عملها في مطعم بمدينة نيم الفرنسية، يقع على الشاطئ، وأنها بدأت العمل فيه منظفة ثم جعلتها صاحبته مشرفة عليه، بعد أن شاخت وبدأ يصيبها الخرف. نظر مُحَّد بوفراح نحوها وقال لها:

. إذا كانت مدام أنيط قد وعدتك بأن تُورثك المطعم، فلماذا لم تفعل لحد الآن؟

قالت له:

. سيكون ذلك، لكني لا أحب أن أظهر أمامها بمظهر امرأة طماعة فأستعجلها في كتابة الوصية، وقد يُشعرها ذلك بأنني أستعجلدنو أجلها.

ثم التفتت نحوي وقالت لي:

. مدام أنيط هي بمثابة كأم ثانية لي. لم تعاملني كعاملة في مطعمها، بل إنها قد ساندتني في الكثير من المحن التي عشتها. وها هو مُحَمَّد بوفراح، لولاها لما حصل على أوراق الإقامة.

وقف أمامها وقال لها:

. أنتِ دائما تتبجحين عليَّ بذلك.

سألته:

. وهل تنكر الجميل؟

خفض رأسه نحو الأرض وقال لها:

. أريد أن أعرف، هل ستشترين الشقة باسمينا معا؟

انقبضت ملامح وجهها وقالت له:

. ولماذا سوف أشتريها باسمينا معا؟

قال لها:

. لنكون شريكين فيها كما أنا وأنت شريكان في الحياة.

قالت له بغضب:

. أنا لا أشترك معك في الحياة.

قال لها:

. أنا أدفع نصف ثمن الشقة وأنتِ تدفعين النصف الآخر.

سألته:

ـ معك المال؟

لم يرد، وسألها:

ـ وأنتِ معكِ المال؟ أعرف أنكِ كنتِ تخفين عليَّ ما تجمعينه من مال.

قالت له:

ـ وأنت كم جمعت من الملايين؟

قال:

ـ الملايين التي معي جنيتها من فيديوهات القناة.

قالت له:

ـ ليس كلها. بل إن أغلب المال الذي تكنزه، عندما تتذكر من أين أتيت به، سوف تخجل من نفسك.

أحسست أن خصومة سوف تنشب بينهما. طلبت منهما أن يسويا الأمور بينهما، وقلت:

ـ ها قد شاهدتما الشقة.

ثم اتجهت نحو الخروج منها فتبعاني ونزلنا الأدراج. عند باب العمارة أخبرتني بأنها سوف تتصل بالموثق من أجل إبرام العقد الأولي للبيع. ودعتهما وسرت نحو موقف السيارات. ركبت سيارتي واتجهت نحو "دارة جلجل"، وأنا أفكر في علاقتها الغريبة مع من يرافقها، كما أعجبت بطلعتها وإشراق وجهها.

في صباح الغد، وأنا أتأهب للذهاب إلى "دارة جلجل" لاستقبال سياح جدد، جاءتني مكالمة، فسألت:

. من معي؟

سمعت من يقول:

. أنا مُحَمَّد بوفراح.

سألته:

.كيف عرفت رقم هاتفي؟

قال:

. في غفلة من ربيعة أخذته من هاتفها.

سألته بجفاء:

. ماذا تريد؟

قال:

. أريد أن أتحدث معك.

. حول ماذا!؟

. عندما نلتقي سوف تعرف. أنا أنتظرك على ناصية المقهى المجاور للعمارة.

ثم قطع الخط.

ترى ما الذي يريده مني مُحَّد بوفراح، هذا المكشر بوجهه، الشبيهبلغم على وشك الانفجار، وما الذي يريد أن يتحدث معي فيه؟ هو على ناصية المقهى ينتظرني، وأنا لا طريق لي أسلك منه عندما أخرج من باب العمارة سوى الناصية التي يوجد عليها المقهى المجاور للعمارة. تهيأت لأن أبعده عني. حال خروجي من باب العمارة، التفت نحو المقهى وعندما رآني أقبل عليَّ وطلب مني أن أجالسه، فأخبرته بأنني ذاهب إلى عملي ولا وقت لي لمجالسته. تمسك بي وأخذ يطلب مني أن أمنحه بعض الدقائق ليقول ما عنده. سألته:

. حول ماذا؟

قال:

. حول بيع الشقة.

سألته:

. ما الأمر؟

قال:

. إنك لن تبيع الشقة لربيعة بمفردها، ولن تبيعها إلا لنا معا.

قلت له:

. هذا ليس بيدي.

قال:

ـ أطلب منك أن تقنعها بذلك.

قلت له:

ـ لا أحب أن أقحم نفسي في أمر لا يخصني. عليكما أن تتوافقا.

قال:

ـ غرضي من الاشتراك معها في شراء الشقة هو أن نبقى مع بعضنا.

قلت له:

ـ إن كنت تتصل بي من أجل هذا فلا تعول عليّ.

أردت أن أتركه، فتوسل إلي، وقال لي:

ـ اجلس معي لخمس دقائق وستعرف.

أتينا إلى مائدة فارغة، وجلسنا. جاء النادل فطلبنا منه قهوتين. قال لي:

"في لقاء أمس، حسبت أنك سوف تعرفني، لكن يبدو أنك لا تدخل اليوتيوب ولذلك لم تعرفني، ولم تعرف شيئا عن حياتي. ستعرف كل شيء فيما بعد. لكني لاحظت صباح أمس أنك تتجاهلني وتولي كل اهتمامك لربيعة، والحديث بينكما تجاوز حدود بيع وشراء شقة. أنا فهمت نظراتها إليك، وفهمت ما كانت تخفيه نظراتك. رغم أنني لست زوجا لها فأنا أغار عليها وأنتظر أن تقبلني في القريب زوجا لها، بعد أن تحصل على الطلاق من زوجها عبد الرحمن البيضاوي الذي تخلى عنها منذ سنوات. كل ما أطلبه

منك آ السي عبد الوهاب هو ألا تدخل معها في علاقة، فقد سمعت أنك مطلق، وهي امرأة جميلة. ربما تكون قد نظرتَ إليها لتكون زوجة لك أو عشيقة. لو حدث هذا بينكما وأصبحت منافسا لي فأنت سوف تفسد عليَّ حياتي وتُضيع ما تبقى لي من أمل في أن أنال ربيعة. أطلب منك ألا تلتقي بها بعد اليوم، وأما شراؤها للشقة فيمكن أن يتم عن طريق الموثق، وإن دخلت معها في علاقة فسوف أقتلكما معا".

رأيت سحنته تتغير، ووجهه يصبح بملامح قاتل. قلت له:

ـ اترك الظنون والأفكار الخاطئة، وإن كان لك شأن مع ربيعة فأنا لا شأن لي معها. أما تهديدك بالقتل فهو جنحة يعاقب عليها القانون.

أردت أن أنهض. تمسك بي للبقاء جالسا بجواره. تملصت منه. ناديت النادل. دفعت له ثمن القهوتين. هممت بالذهاب. لحق بي وقال لي:

ـ السي عبد الوهاب، أعتذر لك عن هذا الغضب الذي أصابني. أنا لم أقل كل ما عندي. سوف تشاهد الفيديوهات التي نشرتها في قناة بوفراح.

تساءلت:

ـ قناة بوفراح؟

قال لي:

ـ هل تستكثر عليَّ أن تكون لي قناة في اليوتيوب؟

أشحت عنه بوجهي وغادرته. أحسست به واقفا على رصيف المقهى، يتابعني بنظراته من الخلف. عبرت الرصيف. ركبت سيارتي ومضيت إلى "دارة

جلجل".

في وقت الغذاء تناولت في المطعم سلاطة وأضلاع خروف مشوية على الفحم وتفاحة. أحسست بالاسترخاء. قصدت إحدى الغرف لآخذ قسطا من الراحة.جفاني النوم. فتحت هاتفي المحمول. دخلت الوات ساب لأرى إن كان أحد ممن أتعامل معهم قد بعث لي برسالة، ثم دخلت اليوتيوب. جلت في القنوات وأنا أبحث عن قناة بوفراح. اطلعت على أخبار النجوم وفضائح الفنانين والفنانات، وعلى أخبار وحوادث بين الصدق والكذب، والتهويل الذي يجلب الانتباه، وقرأت تعليقات بعناوين مثيرة عن أحداث لم تقدم أخبارها أية قناة رسمية، ثم أعرضت عن بعض القنوات التي تقدم وصفات لتحضير الأكلات والحلويات، وعن أخرى تقدم وصفات لعلاج فطريات الأظافر والضعف الجنسي والتهاب المسالك البولية وتبييض الأسنان. توقفت عند قناة طامو فوجدتها تصرخ وهي تخاصم جارتها وتشتمها بأقذع الشتائم. لم أفتح قناة الرابوز التي تُظهر على الشاشة منفاخا كبيرا ويدتنفخ في النار لتذكو، وصاحب القناة يقول:

ـ أنا الرابوز، هل تنفخ فيَّ أم أنفخ فيك؟

أعرضت عن قناة تدعي صاحبتها أنها تأتي بالرزق، وأخرى تبوح فيها امرأة بعشقها للنساء، وأخرى تقدم فضائح بعض المشاهير.وجدت قناة تُشهر بالملوك والرؤساء وحياتهم الخاصة، وتشيع إشاعات عن موتهم، أو عن انقلابات عسكرية وأخرى تحدث داخل القصور، وعلاقاتهم بزوجاتهم، وعدم صحة أنسابهم، وكل ذلك إنما يقدم بالكثير من التشفي والازدراء.

قنوات كثيرة، لا شأن لأصحابها سوى أن يشغلوا الناس عن أمورهم. المشاهدات نفسها تدل ضحالة الفكر وملأ الفراغ بما لا تفيد في شيء. بقيت أبحث عن قناة بوفراح إلى أن ظهرت لي صورته، وقد كتب تحتها: يوميات لص مهاجر. رأيت وجهه العبوس وهو ينحني بنظراته نحو الأرض يمسك برأسه بيديه، وعندما واتته الجرأة على الكلام قدم التحية للمشاهدين الكرام وطلب منهم أن يسجلوا الدخول وألا ينسوا قرع الجرس ليصلهم الجديد. قال:

"أنا مهاجر مغربي أعيش في فرنسا، بالضبط، في مدينة نيم، دون عمل، وسوف أعرف المشاهدين الكرام بالظروف التي دفعتني إلى الهجرة، وأنا في الثلاثين من عمري. ولدت في قرية بوفراح بالريف، ونشأت في بيت أب قاس تزوج ثلاث نساء وأنجب أربعة عشر ولدا وبنتا، وكان يستعمل كل نسائه وبناته في إعداد الطعام وجلب الحطب وسقي الماء وأشغال الفلاحة. أما أولاده، فكان يستأجرهم لمن يرغب في عملهم في الحقول أو في البناء. كسر والدي ظهور الجميع بالعمل الشاق، ولم يشتك أحد للآخر، فقد كان لا يرحم من سمعه يشكو من شيء. زوجاته لم تكن قادرات على إظهار خصوماتهن أمامه، خوفا من غضبه.على بعد المدرسة عن مسكننا كنت أذهب إليها في الصباح حاملا معي خبزا وقارورة مليئة بالشاي،هما طعامي وشرابي في وسط النهار. تحملت المطر والطريق الموحل لعدة سنوات إلى أن وصلت إلى قسم الشهادة الابتدائية. كان الوالد يملك قطيع ماعز تخلف من كان يرعاه فاستخدمني في رعيه مقابل خبز وشاي بهما كنت أعيش سواء في المرعى أو في البيت. سنوات طويلة قضيتها في الرعي. أخذت أفكر في

مستقبلي، وهل عليَّ أن أبقى راعيا مدى الحياة،فحتى إن مات الوالد فلن ينالني من الإرث ما أصنع به حياة جديدة، لكثرة زوجاته وإخوتي. بقيت أفكر في مستقبلي إلى أن سمعت من عمرو ابن عمي أنه سوف يهاجر إلى فرنسا، وسيعمل هناك ليجمع مالا يعود به ليشتري قطعة أرضية يحرثها ويبني على جزء منها دارا، ثم يتزوج. لعبت الفكرة في رأسي. جاء يوم بعت فيه القطيع بأرخص ثمن لمن سوف يذهب به إلى المجزرة، وعندما أصبح المال بين يديَّ، غادرت قرية بوفراح مشيا على الأقدام، وأنا أرتدي جلباب الراعي. في الناظور اشتريت حذاء وبعض الملابس. مكثت مدة إلى أن وجدت من ساعدني على الحصول على جواز السفر. أقلتني سيارة لنقل المسافرين إلى الحدود مع مدينة مليلية. عبرت الحدود برشوة قدمتها لرجال الجمارك، لأنني لم أكن أتوفر على التأشيرة. بهرتني المدينة. قضيت فيها عدة أيام قبل أن أجد باخرة متجهة إلى ميناء برشلونة، فركبتها. وصلت إلى المدينة وهي تحتفل بعيد الشكر. احتفلت مع المسيحيين وأنا مسلم، لكني لم أذق خمرهم التي حرمها ديننا الإسلامي. خلال أيام الاحتفالات لم أجد عملا، وبعد أن انقضت تلك الأيام ركبت القطار إلى أن وصلت إلى باريس. كنت أعلم أن عمرو ابن عمي يوجد في باريس، لكني لا أعرف عنوانه. في محطة القطار التقيت مع بعض المغاربة فأخبروني بأنهم سوف يتجهون إلى نيم، وهي مدينة شاطئية يوجد بها العمل كما قالوا، خاصة في فصل الصيف حيث يكثر المصطافون، فذهبت معهم، لكني حتى في مدينة نيم لم أجد عملا. تسكعت في الطرقات، ونمت عند مداخل العمارات، وافترشت رمال الشاطئ. بقيت ضائعا، ولم أجد عملا في البناء أو في غيره. نفد ما معي من مال، فأخذت

آكل من الطعام الذي يُلقى من المزابل. بعض المغاربة المشردين مثلي كانوا يقولون إن أرباب العمل يعتبرون المغاربة والجزائريين يغشون في العمل، ويتسببون في الخصومات والمشاكل. ذات يوم، اعترضت سبيل رجل مسن، كان يمشي ببطء شديد، وهو يتكئ على عكاز، فأرغمته بتهديد من سكيني على أن يسلمني حافظة نقوده، فأخذتها ومشيت مسرعا. احتفظت بالمال ورميت بالحافظة وما فيها من وثائق في القمامة. لم يكن مالا كثيرا، لكن هذه التجربة فتحت لي الطريق أمام السرقة، فأخذت أعترض سبيل المارة وأسلبهم ما معهم من نقود وهواتف محمولة، وإن اعترضت سبيل امرأة أسلبها حقيبة يدها والسلسلة الذهبية التي على عنقها والخواتم التي في أصابعها. تجرأت مرة، فرصدت محلا لبيع الخمور، إلى أن أصبح خاليا من الزبائن، فاقتحمته وشهرت سكيني في وجه البائع. سلمني كل المال الذي في الدرج. خرجت من المحل. سرت بخطوات واثقة حتى لا يشك في أمري أحد. اشتريت ملابس جديدة، وحلقت شعري عند الحلاق. فكرت في أن أكتري مسكنا أستقر فيه، لكني أجلت ذلك، بقيت أنام تحت القناطر وأنا آخذ الحذر من مداهمات البوليس الفرنسي. هكذا عشت على السرقة، وتعرفت على لصوص آخرين أرادوا مني أن أنتمي إلى عصابتهم، لكني داريتهم، وفضلت أن أبتعد عنهم، وأن أسرق وحدي. توالت غاراتي على أصحاب المحلات التجارية، فأصبح لديَّ مال كثير، خفت من أن ألتقي مع عصابة تسلبه مني. أصبحت في حاجة إلى مسكن أنام فيه وأُخفي مسروقاتي. اكتريت غرفة في سطح إحدى العمارات، فأصبح لي سقف أحتمي به من المطر ومن حر الشمس. في تلك الغرفة خبأت المال وكل ما كنت أسلبه من

المارة أو من أصحاب المحلات التجارية، لكن البوليس الفرنسي تعقبني إثر غارة فاشلة، وعندما رأيت من سطح العمارة رجال الشرطة يدخلونها عرفت أنهم يريدون القبض عليّ، فقفزت من سور قصير حتى أصبحت في سطح عمارة أخرى مجاورة ونزلت الأدراج ثم خرجت إلى الشارع، وقد تركت في غرفة السطح كل المال والمسروقات. بعد ساعات عدت إلى الغرفة، فوجدت من أخبرني بأن البوليس داهموها وأخذوا كل ما فيها، وأنني مطلوب لديهم. ابتعدت عن ذلك الحي، وبدأت من الصفر. أعني بالصفر أنني بدأت السرقة من جديد، وكان لابد لي أن أجد من يشتري مني المسروقات، من هواتف وحليٍّ ذهبية وحقائب اليد النسائية التي كنت أختطفها، وأن أبيع ما أحصل عليه من السرقة بأسرع وقت ممكن، حتى لا يضبطه البوليس معي إن تعرضت للتفتيش. وجدت الحل عند كمال، الشاب الجزائري الذي أوصلني إلى شقة التقيت فيها مع شبان مغاربة وجزائريين، يفوق عددهم العشرة، وكانت الشقة بمثابة متجر تعرض فيه المبيعات في أروقة بعضها مخصص للحلي الذهبية والساعات والهواتف وبعضها مخصص للمعاطف المصنوعة من الفراء والملابس الرجالية والقمصان الملونة وربطات العنق والحقائب النسائية المصنوعة من جلد النمر والأحذية ذات الكعوب المعدنية. اكتشفت أنني في متجر سري. قدمني كمال لأحد الشبان فاشترى مني المسروقات، ولكن بثمن أقل بكثير من قيمتها، ودعاني إلى أن آتيه بكل ما أحصل عليه. خرجنا أنا وكمال وجلسنا في المقهى. أخبرني بأن أولئك الشبان يختصون في سرقة الحقائب اليدوية لبعض السياح الأجانب، وخاصة اليابانيين، وما يهمهم منها هو ما تحتوي عليه من مال، والبطاقة البنكية التي

يبحثون عن أرقامها السرية وإن وجدوها يشترون بها أكبر ما يمكن، وفي وقت وجيز، من الملابس وربطات العنق الحريرية، والساعات الغالية الثمن والهواتف الذكية، ثم يأتون بما اشتروه لتلك الشقة ليعرضوه للبيع بأقل الأثمان، ولديهم وسطاء يأتونهم بالزبائن. أخبرني بأنهم من جيل المهاجرين الثالث أو الرابع، الذي ولد في فرنسا، وهم يعيشون على السرقة والاتجار في المسروقات، ويملكون سيارات ولهم حسابات في البنوك، يرتادون أحسن المطاعم والمراقص ليستمتعوا بالحياة وليبحثوا فيها عن ضحاياهم، كما أن آخرين منهم يتاجرون في المخدرات، ولهم زبائن من كل طبقات المجتمع. ذات يوم قصدت المقهى فوجدت كمال جالسا يضع يده على خده وقد بدا عليه حزن شديد. سألته عما به فلم يرد، وعندما ألححت عليه قال لي إن حزنا جزائريا ينتابه، فسألته:

ـ هل هناك حزن جزائري وآخر مغربي؟

ابتسم وقال لي:

ـ حزننا في بلد الغربة واحد.

عجبت له وهو يحكي تجاربه في السرقة بكل هذه صراحة، ودون أي شعور بالذنب، وهو يواجه من يشاهدون القناة بنظرات متحدية تخفي شيئا من الرغبة في الدفاع عن النفس، وإلقاء كل التبعات على ظروف الهجرة.وعجبت لربيعة وهي تعاشر واحدا من الحثالة، يحترف السرقة، ويهدد بالقتل، كما هددني.

مرت أيام لم يتصل بي خلالها الموثق ليخبرني بأن ربيعة قد زارته لإبرام

عقد البيع الأولي. بقيت في حيرتي، وعادت بي الظنون إلى أن تكون ربيعة ومن معها محتالان جاءا لينصبا عليّ.

ذات ليلة دخلت اليوتيوب فوجدت فيديو آخر لمحمد بوفراح بعنوان: "المال آ خوتي!".

شاهدته وهو يضع أمامه أوراقا كثيرة من المال ويتأملها، ثم رفع بصره نحو المشاهدين وطلب منهم أن يسجلوا الدخول وألا ينسوا قرع الجرس، ثم قال:

"أوراق المال هاته التي ترونها، هل تنتظرون مني أن أشعل فيها النار؟ إن جن جنوني قد أفعل ذلك. وإن فعلتُ فسوف أحصل على أكثر منها بكثير. المال الذي يأتي بسرعة ينبغي أن يذهب بسرعة. تسألون كيف أحصل على المال. سوف أشرح لكم. في فيديو آخر سبق أن تكلمت عن كمال، وكيف عرفته، فقادني إلى المتجر السري. أصبح صديقا لي. ذات مرة رأى في يدي هاتفا ذكيا ألهو به، فأخبرته بأنني قد قدمته لأحد أصحاب المتجر السري ليشتريه مني لكنه اقترح ثمنا زهيدا، فعدلت عن بيعه. أخبرت كمال بأنني لا أعرف كيف أشغله. طلب مني أن أعبئه بشريحة وأن أشتري له شاحنا، ففعلت، ثم ساعدني على أن أعرف كيفية تشغيله، وسألني هل أعرف القراءة والكتابة، فأخبرته بأنني قد درست في مدرسة القرية حتى مستوى الشهادة الابتدائية، وقبل الامتحان تخلف الراعي الذي كان يرعى القطيع فكلفني والدي برعيه. علمني كمال كيف أدخل اليوتيوب، فأخذت أشاهد الفيديوهات. أعرض منها على ما لا يهمني وأقبل على المقالب

المضحكة، وأخبار النجوم، إلى أن وجدت فيديو يتحدث فيه صاحب قناة عن المال الكثير الذي يربحه من اليوتيوب، فأغراني ذلك، وقررت أن أستعمل الهاتف في تصوير بعض الفيديوهات، بمساعدة كمال.الفيديوهات الأولى التي شاهدتموها في قناة بوفراح هي بمساعدته في التصوير، ثم وجدت فيما بعد من يقوم بذلك. اقترحت على ربيعة، وهي السيدة التي أسكن معها، أن نشترك في القناة، فرفضت. المال الذي تشاهدونه أمامي هو التعويض الذي قدمه لي اليوتيوب خلال ثلاثة أشهر. تتساءلون كم؟ كثير من أصحاب القنوات لا يصرحون بما يربحونه من مال. أمامي الآن الملايين. في كل شهر أحصل من اليوتيوب على مال كثير، وذلك بفضل ملايين المشاهدات. والآن هل تنتظرون مني أن أحرق هاته الأوراق المالية التي أمامي؟ لن أحرقها. ما قلته عن حرقها كان مجرد مزاح. وأنا مُحَمَّد بوفراح أتمنى لكم أياما طيبة، ومرحبا بكم في القناة لتجدوا المزيد".

أهذا هو المال الذي أراد به أن يشترك مع ربيعة في نصف الشقة؟ ربما كان يوفر مالا آخر حصل عليه من السرقة ذلك ما كان ربيعة قد لمحت له خلال لقائي معهما. كل ما فهمته من علاقتهما هو أنها تتبرم منه وهو يلتصق بها ويربط حياته بحياتها. رأيت ألا أتدخل فيما لا يعنيني من أمرهما، وإن كانت لم تزر الموثق فهذا يعني أنها لم تعد راغبة في شراء الشقة، ربما لتدخل بوفراح في موضوع الشراء.

مضت الأيام، فانشغلت بأشغالي ونسيت ربيعة وبوفراح، إلى أن فتحت حاسوبي ودخلت اليوتيوب، فوجدت فيديو آخر كتب تحته: "أنا وربيعة". تحرك فضولي. ترى ما الذي يمكن أن يقوله عن علاقتهما؟ رأيته يظهر بوجهه

المائل إلى الطول وعينيه الغائرتين ونظراته المتربصة. من يراه لا يطمئن إليه. توقعت من عنوان هذا الفيديو أن يكشف عن علاقته بها. بدأ بتوجيه التحية للمشاهدين، وطلب منه تسجيل الدخول وقرع الجرس، ثم أخفى وجهه بين كفيه، وتنهد بشكل مفتعل، وزفر ثم قال:

"آه! ربيعة! من أين أبدأ؟".

بقي صامتا لبرهة ثم قال:

"أبدأ من حالتي كمتشرد، تائه في مدينة نيم الفرنسية، لا أجد المأوى. أيام وأنا أنتظر أن أقوم بالسرقة فلمتسعفني الظروف. عدت آكل من المزابل كما كنت. أخذني التشرد إلى الشاطئ. وقفت أمام باب السوق المركزيعسى أن أجد امرأة أختطف منها حقيبة يدها. وقف أمامي منصور الهداف. مغربي، مشرد مثلي. أشار إلى مطعم قريب ثم أخبرني بأن المشرفة عليه مغربية اسمها ربيعة السعدي،وأخبرني بأن له قصة طويلة معها. لم أبال بسماع قصته، فقد كنت أنتظر أن أجد ضحية محتملة، رجلا أو امرأة، لكن منصور أخذ يحكي لي قصته مع ربيعة بكثير من الانفعال. قال إنها قامت بتهريبه، حيث أركبته في درج السيارة الخلفي وعبرت به الحدود نحو سبتة، وعندما أتت به معها إلى نيم بقصد أن يعمل في المطعم، لم تف بوعدها، وذكر لي أنه قد دفع لها في المغرب ستة ملايين، ثلاثة منها من أجل تهريبه، وثلاثة أخرى من أجل عقد العمل. على سبيل التهدئة، فقد أسكنته في شقتها وأطعمته لعدة شهور قضاها في التسكع، إلى أن قررت طرده، فأصبح ينام في سيارتها. هو الآن يطالب بأن ترد إليه الملايين الثلاثة. أشار إلى سيارة رونو إسباس رمادية

اللون، وأخبرني بأنها لربيعة، وفي درجها الخلفي هربته. قال إنه قد كسر قفل باب السيارة وأخذ ينام في مقاعدها. لم أبال بقصة منصور مع ربيعة، وطلبت منه أن أنام معه في المقعد الأمامي للسيارة فرفض ذلك. أغضبني ذلك فحقدت عليه. ذات صباح، وأنا أمر بجوار السيارة، تطلعت من زجاجها إلى الداخل فلم أره ينام في خلفيتها، ثم رأيت سيدة قادمة، عرفت فيما بعد أنها ربيعة، ومنصور يقبل نحوها وينهال عليها بالضرب. تدخلت من أجل أن أمنعه من الضربات التي كان يوجهها لها، لكنه لكمني لكمة قوية، وأخرج سكينه. نزعت السكين من يده ودخلت معه في معركة خرج منها مهزوما، بعد أن أشبعته ضربا ولكما. وقف أمامي وسألني عن العلاقة التي تربطني بربيعة، حتى أدافع عنها، فأخبرته بأنها ابنة بلدي، وأنا رجل شهم، لم يكن باستطاعتي أن أقف متفرجا على رجل يضرب امرأة بكل ذلك الضرب. نظرت إلى ربيعة فرأيتها تنظر إليّ وتسمع ما أقول. انصرفت، دون أن تشكرني، وانصرف منصور ذليلا حقيرا وأنا أحذره من أن يعود إلى الاعتداء على السيدة، لكنه ابتعد قليلا، وهددها بأن يقتحم عليها شقتها ويذبحها. خلال سيري تذكرت الضربات الموجعة التي كان والدي يوجهها لزوجاته ولإخوتي، وحسبت تلك اليد القوية التي كان يضرب بها ستكون قد رشت تحت التراب. منذ ذلك اليوم، أخذت أنام في سيارة ربيعة. بعد أيام، وأنا نائم، سمعت طرقا خفيفا على الزجاج، فرفعت رأسي ورأيتها تقف أمامي. خرجت من السيارة، وحييتها. قلت لها إن عاد منصور إلى للاعتداء عليها فسوف أكسر عنقه، وطلبت منها ألا تأخذ تهديده محمل الجد. طلبت مني أن أغادر سيارتها وألا أعود للنوم داخلها. أخبرتها بأنني لن أكف عن ذلك

إلا إذا حجزت لي غرفة في فندق من خمس نجوم. ضحكت. تفحصتني بنظراتها. سألتني عن بلدي في المغرب، ومتى جئت إلى فرنسا، وما هي الطريقة التي عبرت بها الحدود، فأجبتها عن أسئلتها، وحينما عرفت حقيقة أمري أخذتني إلى شقتها التي توجد في عمارة قريبة من المطعم الذي تعمل فيه. أشارت إلى فراش في الصالون، وقالت لي ها هي غرفة فندق الخمس نجوم، ثم قدمت لي وسادة وبطانية طلبت مني أن أعيدهما في الصباح إلى الدرج الذي أتت بهما منه. اشترطت عليَّ عدة شروط من بينها ألا أتأخر في الخارج إلى ما بعد التاسعة ليلا، وأن أغادر الشقة قبل الثامنة صباحا، دون تأخير، وألا أرافق أحدا إلى الشقة، وألا آتي مخمورا أو وأنا أحمل معي خمرا. أخبرتها بأنني أقبل كل تلك الشروط، وبأنني لا أتعاطى شرب الخمر، كما أنني غريب لا أحد لي. أيام مضت، وأنا ألتزم بشروط السكن. أقضي النهار في التسكع في الشاطئ أو في الأزقة الخلفية متجنبا أن يسألني البوليس الفرنسي عن أوراق الإقامة، ثم أعود في الليل، فأصعد أدراج العمارة التي تسكنها ربيعة تحت نظرات مستفهمة لبعض الجيران. أطرق الباب. تفتحه. تُعرض عن الكلام معي. تدخل غرفة نومها. أسمعها تغلق عليها الباب بالمزلاج. أجلس وحيدا وأنا أفكر فيما سوف تؤول إليه حياتي. يتجه بي التفكير نحو ربيعة، فهي امرأة جميلة، ورغم أنها كانت قد أسكنت منصور الهداف معها فهو نفسه ذكر لي أنها لم تسمح له بأن يلمسها. تذكرت الساعة التي كنت فيها أرعى الغنم على أطراف قرية بوفراح ثم سألت نفسي عما سوف أصبح عليه، فقررت الهجرة، وبعت قطيع الماشية، وكان ما كان. في هذه الساعة، وأنا في نيم، أسأل نفسي عن مصيري، وهل سوف أبقى

مشردا. وضعت ربيعة نصب عينيّ، ورغبت في أن أتزوجها. رغم أنها قد سبق لها الزواج من رجل اسمه عبد الرحمن البيضاوي، وأنا لم يسبق لي أن تزوجت، فلا بأس، المهم هو أن أجد المرأة التي تساندني في السراء والضراء. لم أتسرع في مفاتحتها في الموضوع، فقد كانت جادة في تعاملها معي، تتجاهل نظراتي وتفضل ألا يكون بيننا أي كلام. رأيت أن أترك ألأمر إلى أن تألفنيوتلين، فأخذت آتي بالطعام إلى البيت وأطلب منها أن تشاركني فيه، لكنها ترفض، ثم اشتريت قارورة عطر وعندما قدمتها لها لم تقبلها مني. بقيت أفكر، فوجدت أنها لم تأت بي للمبيت في شقتها إلا من أجل أن أحميها من تلك الغارات التي كان منصور يشنها على شقتها ليلا، وهو يهدد بكسر الباب واقتحام الشقة ليذبحها. عندما واجهت منصور وأبعدته عنها لم أكن أعلم أنني أرسم لنفسي حياة كلب الحراسة، وهي حياة لا تروقني. نظرت في المرآة إلى وجهي الكالح وشعري المغبر ولحيتي التي غفلت عن حلقها، وإلى ملابسي التي تهلهلت، ففكرت في أن امرأة جميلة وأنيقة كربيعة، تتزين وتتعطر، وترتدي أحسن الملابس، لا يمكنها أن تقيم علاقة مع رجل من الحثالة. خرجت أبحث عما يمكن أن أسرقه. اعترضت طريق امرأة فسلبت منها حافظة النقود وهاتفا وخواتم ذهبية. بعت الهاتف والخاتم واشتريت ملابس جديدة وحذاء جديدا، ثم حملت الكل في يدي في كيس ودخلت محل حلاق مغربي فقام بحلق شعر رأسي ولحيتي، وعدت إلى شقة ربيعة. عندما فتحت لي الباب تجاهلت ما طرأ على شكلي من تغيير، ولم تسألني عما في الكيس الذي في يدي. دخلت الحمام. استحممت وارتديت الملابس. وقفت أمام المرآة وأنا أشعر بالرضا عن النفس. ثم أتيت إليها وهي

في المطبخ تهيئ طعام العشاء. بقيت واقفة، تدير لي ظهرها، ولم تلتفت لتراني. ناديتها:

ـ ربيعة!

التفتت نحوي كالمذعورة، وسألتني عما أريد. طلبت منها أن تجلس معي، لأحدثها عن أمر هام. أتت إلى الصالون وجلست ثم قالت لي:

ـ ها أنا أسمع.

عرضت عليها الزواج، فرفضت، وعندما ألححت في الطلب، أخبرتني بأن زوجها عبد الرحمن لم يقم بالطلاق، وأنها في نظر الشرع والقانون ما تزال في عصمته. طلبت منها أن تطلب من المحكمة الطلاق، فقالت إنها لا ترغب في الزواج، وأن طلب الطلاق من المحكمة أمر يخصها، ثم عادت إلى المطبخ. بقيت جالسا، أفكر حالتي، والحق أنني كنت أشتهي ربيعة، وقد أردتها بالحلال، لكنها رفضتني. قررت ألا أبقى كلب حراسة، وأن أغادر السكن معها، لكني أجلت ذلك إلى حين أن أجد مسكنا. بقائي معها طال. في كل ليلة كنت أشتهيها، لكنها كانت تقصد غرفة نومها ثم تغلق عليها الباب من الداخل. بقيت أشعر بالخيبة وأعاني العذاب. ذات صباح وأنا أغادر بيتها، وقفت أمامي، فحسبتها سوف تطلب مني أن أغادر بيتها، لكنها لم تطلب ذلك، وسألتني عن المال الذي يروج بين يديّ، فأخبرتها بأنني أحصل عليه عن طريق السرقة. بدا عليها الاستياء، وعبرت عن خوفها من أن يطاردني البوليس حتى شقتها. طمأنتها. اتجهتْ نحو الباب، فغادرتُ الشقة تحت نظراتها التي تعبر عن الاستياء. وأنا في الشارع شعرت بالجوع. قصدت باب

السوق المركزي. تربصت بامرأة وهي تخرج من السوق، يداها مثقلتان بالخضر. انتزعت منها حقيبة يدها. بعد أن ابتعدت عن المكان فتحت كيس النقود فوجدت فيه مالا لا بأس به. قصدت المقهى. أفطرت ثم شربت قهوة. في المساء دخلت متجرا لبيع العطور، فانتقيت قارورة أعجبني شكلها واختطفتها من مكانها ثم غادرت المتجر. اشتريت أطعمة جاهزة وعدت إلى بيت ربيعة. وجدتها جالسة في الصالون تشاهد التلفزيون. تطلعت إلى ما في يدي. جلستُ بالقرب منها. وضعتُ الطعام على المائدة. نهضت ترغب في أن تغادر الصالون. طلبت منها أن تجلس لنتناول طعام العشاء معا. أخبرتني بأنها قد تناولت عشاءها، واتجهت نحو غرفة نومها. لحقت بها. قدمت لها قارورة العطر، فلم تأخذها مني. دخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب من الداخل. وطنت نفسي على أن أصبر إلى أن أجعلها تلين وتخضع لي. أصبحت أركز خططي في السرقة على مسروقات تناسب ربيعة، وكلما قدمت لها هدية مما أسرقه كانت ترفضها. أقبلت أعياد الميلاد، وتغير وجه مدينة نيم، كما أقبل الفرنسيون على الشراء. دخلت متجرا لبيع الملابس النسائية فاخترت معطفا نفيسا له فرو ثعلب، ثم خلعت سترتي وارتديته، وفي غفلة من البائعات خرجت من المحل وقد تركت بدل المعطف سترة بالية لا قيمة لها. أخذت أركض وأنا ألتفت نحو الوراء، وعندما لم أجد أحدا يتعقبني نزعت المعطف ووضعته على ذراعي وسرت. حسبت أن معطفا ثمينا كهذا سوف يغري ربيعة فتقبله هدية مني. خلال الطريق رأيت شابا يوقف سيارته على الرصيف، مقابل مدخل إحدى العمارات، ثم يفتح الدرج الخلفي، فظهرت لي قوارير الشمبانيا وعلب الشوكولاتة وباقة ورد وعدة هدايا. حمل

الشاب منها ما استطاع إلى أن ثقلت يداه ولم يتمكن من أن يغلق باب الدرج فتركه مفتوحا ثم دخل العمارة. قبل أن يعود إلى درج السيارة ليحمل ما تبقى كنت قد اختطفت قارورة شمبانيا وعدة أكياس وباقة ورد، ثم أطلقت ساقيَّ للريح. أخفيت القارورة تحت المعطف، ووضعت عليه باقة الورد، وحملت الأكياس بيد أخرى ثم أتيت إلى بيت ربيعة. عندما فتحت لي الباب رأت ما في يديَّ ثم تطلعت إلى الممر. من نظراتها عرفت أنها توقعت أن يكون معي أحد. بعد أن دخلت وضعت كل ما كان في يدي على المائدة. عندما رأت قارورة الشمبانيا بدا عليها الغضب، وذكرتني بأنها كانت قد اشترطت عليّ ألا أُحضر الخمور إلى شقتها. اعتذرت لها وقلت:

ـ الليلة هي ليلة عيد الميلاد.

فقالت:

ـ هو عيد ميلاد النصارى وليس عيدنا نحن المسلمين.

قدمت لها باقة الورد، فأعرضت عنها، وأعرضت عن المعطف، ثم قصدت غرفة نومها. جلست، وبقيت أنظر إلى الأشياء التي أمامي على المائدة. أحسست بالمهانة. ربيعة أهانتني. عاودتني الشعور بأنها تعتبرني كلب حراسة ولا شيء غير ذلك. ندمت على اليوم الذي تدخلت فيه بينها وبين منصور الهداف. قضيت الليلة وحيدا، أشرب من الشمبانيا، وعندما فتحت كيس الهدايا وجدت به سيارة للشرطة، تتحرك بواسطة جهاز التحكم، فأخذت ألهو بها فوق مائدة الطعام، وعلى الأرض. أضواء السيارة والأصوات التي تطلقها جعلاني أستعيد لحظات الرعب التي كنت أشعر بها

وأنا أرى سيارة الشرطة تقبل من رأس أحد الأزقة، فألجأ إلى الفرار. من كأس لأخرى سكرت. لم يسبق لي أن ذقت الخمر، وها أنا أذوقهاوأسكر. خلال سكرتي حضرت صورة ربيعة أمامي. شعرت أنني متيم بها ولا صبر لي عليها، سيما وهي بالقرب مني في غرفة نومها. نهضت ومشيت متثاقل الخطى وأنا أترنح. طرقت الباب بلطف. لم ترد. عدت أطرقه.توترت أعصابي. فكرت في أن أكسره ثم أقتحم الغرفة وأنال ربيعة بالقوة. خشيت إن فعلت ذلك أن تصرخ وأن يدعو الجيران البوليس. عدت إلى مكان جلوسي. احتسيت كأسا بعد أخرى. جن جنوني، وكدت أكسر باب الغرفة لأنقض على ربيعة، لكن جبنا أصابني. أخذني النوم، وفي الصباح أيقظتني لكي أغادر الشقة فلم أستطع أن أنهض من مكاني. رأيتها ترمقني بنظرات غاضبة، ثم غادرت الشقة. بقيت نائما طوال النهار، وعندما عادت في آخر المساء تفطنت لها وهي تفتح الباب، فقد كنت بين نوم ويقظة. اعتذرت لها. لم تأبه لاعتذاري. عدت إلى النوم وتركتها لحالها. كذلك مرت ليلة عيد الميلاد واليوم والموالي لها. حينما وجدت في نفسي القدرة على الوقوف أخذت المعطف وسيارة الشرطة وباقي الأشياء الأخرى فبعتها، كما رميت بالورد في القمامة. عشت الأيام الموالية وأنا في غاية التوتر، أجد أنني لن أتركها لحالها على الدوام، فأنا مغرم بها، وهي تصدني عنها وتتجاهل ما يختلج في نفسي من مشاعر تجاهها، والأمر لن يبقى هكذا بيننا، لأني لا أطيق أن أعيش بقية حياتي في هذا العذاب، وسيأتي يوم أجد فيه الشجاعة لأكسر باب غرفة نومها وآخذها كما أشاء، وليقع ما يقع، لكن ذلك اليوم لم يأت بعد. تصوروا رجلا مثلي، يعيش مع امرأة جميلة في شقة واحدة ولا يراها تبتسم له أو تتبادل معه

الحديث، أو تشعر بحاله! يمكنكم أن تعيشوا معي العذاب الذي أعيشه، وأن تبحثوا معي عن الخلاص. لا تنسوا زيارة قناة بوفراح، والسلام عليكم".

عجبت لطلاقة لسانه وهو يصف علاقته الشائكة مع ربيعة، وتشبثه بها حتى وهي ترفضه. هو يبحث لنفسه عن الخلاص، أما هي فلا أحد يعرف كيف تتصور الخلاص، والنهاية المحتملة بينهما، وهل سوف يتخلى عنها ويتركها تعيش حياتها ليعيش حياته هو الآخر، أم أن شيئا آخر سوف يحدث. لا أدري.

في ليلة أخرى دخلت اليوتيوب، فوجدت فيديو بعنوان: "ربيعة وإسحاق". لو لم أر صورة مُحَمَّد بوفراح لحسبت أنها ربيعة أخرى. قلت ها هو، بعينيه النسريتين ووجهه المضلع وشفتيه الزرقاوين. أخذني الفضول حول من يكون إسحاق، وما هي علاقته بربيعة. سمعته يقول:

"إخواني أخواتي، السلام عليكم. مرحبا بكم في قناة بوفراح. لا تنسوا تسجيل الدخول وقرع الجرس ليصلكم الجديد. ما سوف أحكيه لكم هو واقع عشته مع ربيعة، وهي مهاجرة مثلي إلى الديار الفرنسية، أسكنتني معها في شقتها، وإن كانت هي تنام في غرفة نومها وأنا أنام في الصالون. كل ليلة، وقبل أن يأخذني النوم، أسمع شهقاتها وكأنها تعيش لحظة مضاجعة. أستغرب الأمر، وأحسب أنها تضاجع رجلا اسمه إسحاق، تخفيه في غرفتها طوال النهار لتلتقي معه في الليل. ألذلك كانت تغلق باب الغرفة؟ وماذا يأكل إسحاق ويشرب، وهل هو لا يخرج إلى المرحاض؟ وربيعة، ألم تجد من بين كل الرجال سوى إسحاق؟أول الأمر، ظننت أنها تحلم بأحد الرجال وهو

يضاجعها. أطللت من ثقب مفتاح باب الغرفة التي تنام فيها فلم يتبين لي الأمر. ظننتها تلاعب جسدها لتصل إلى شهوتها، فعجبت لكوني أوجد معها في الشقة، وأنا أشتهيها وبإمكاني أن أحقق رغبتي ورغبتها بينما هي تتمنع عليَّ وتحقق شهوتها بنفسها. في بعض الليالي كانت شهقاتها تطول. ذات مرة سمعتها تهتف باسم إسحاق. أخذت أتساءل:

. من هو إسحاق؟

وأنتم تشاهدون هذا الفيديو تتساءلون معي:

. من هو إسحاق؟

ذات صباح، تظاهرت بالنوم، فتركتني وغادرت الشقة لتذهب إلى المطعم الذي تعمل فيه. وجدت أنها قد أغلقت باب غرفة نومها، فكسرته، ودخلت أبحث عن إسحاق، عسى أن أجده نائما فوق سريرها أو مختفيا في دولاب الملابس أو تحت السرير، لكني لم أجده. تملكني العجب. ما دام إسحاق غير موجود في الغرفة، فهي تحلم به وتناديه باسمه خلال المضاجعة. زاد عجبي لكون ربيعة تحلم بيهودي اسمه إسحاق، بينما العديد من المسلمين والنصارى يشتهونها، وأنا من بينهم. طال بي التفكير في أمرها، وزادت حيرتي. حاولت أن أصلح الباب، لكنه بقي ظاهر الكسر، فعندما عادت من عملها في المطعم سألتني:

. لماذا كسرت باب غرفتي؟

أنكرت أن أكون قد قمت بذلك، فقالت لي:

ـ هل كنت تنوي أن تسرق شيئا مما في غرفة نومي؟

قلت لها:

ـ لم أفكر في السرقة، وإنما كنت أبحث عن إسحاق.

امتقع لونها. صارحتها بما أسمعه في غرفتها خلال الليل من شهقات، فقالت لي:

ـ أنا مريضة، وأطلب منك ألا تتدخل في حياتي الخاصة.

دخلت غرفتها وتركتني وحيدا، أفكر في أمرها ولا أجد سوى أنه أمر غامض، فأي مرض يجعل المرأة تحلم برجل يضاجعها، والرجل يهودي اسمه إسحاق؟ استمر الأمر لعدة ليال، قضيتها وأنا أسمع شهقاتها، وتقلبها في الفراش، ولم يبق لي سوى أن أنتهي إلى أن إسحاق جن وليس بشرا، وهو جن يهودي. أسألكم أيها المشاهدون الكرام: هل الجن فيهم مسلمون ويهود ونصارى؟ لا حاجة إلى الجواب عن هذا السؤال من طرفكم، فربيعة هي المعنية بالجواب، والسلام عليكم".

حسبت مُحَمَّد بوفراح يفتري على ربيعة، ويتخيل علاقتها الجسدية الغريبة مع جني، وربما كان يتصور ذلك كبديل عن إعراضها عنه، وانتقام لذلك الإعراض.

ربما!

قد يكون الأمر كذلك، أو يكون هناك شيئا آخر لم أتوصل إليه. ولكن، وإذا كانت تلك هي الحقيقة، هل يحق له أن يشنع ربيعة ويفشي

أسرارها عن طريق نشر هذا الفيديو في اليوتيوب؟ أليس من حقها أن تتابعه عن طريق القضاء؟ هذا إذا كانت قد شاهدت الفيديو، وإن شاهدته فما رأيها فيه، وهل ما قاله عنها مُحَمَّد بوفراح صحيح أم أنه مجرد افتراء؟ في فيديو آخر، يقول إنها قد أسكنته معها من أجل حمايتها من الغارات الليلية التي كان يشنها عليها شخص اسمه منصور الهداف،فلماذا لم تحتم بالبوليس، ولجأت إلى أن تُسكن معها رجلا قصد حمايتها، وهو من اعتبر نفسه، أمام صدودها عنه، كلب حراسة. غموض يلف علاقتهما. وأنا أتذكر لقائي به في المقهى وظنونه حول ما قد تصير إليه علاقتي بربيعة، وإلحاحه على أن أتركها، وتهديده لي بالقتل. استرجعت صورته في تلك اللحظة، وقد تحول وجهه، فبرزت عيناه، وامتقع لونه، حتى أخذ صورة قاتل.. لمت نفسي لكوني قد تراخيت وقبلت مجالسته في المقهى، وما دامت ربيعة قد غابت، ولم تتصل بالموثق، فأنا في حل من هذه العلاقة، وإن اتصل بي الطايع فسوف أخبره بأن الشقة التي أرادت شراءها قد بيعت.

السي الطايع

في صباح الغد، استيقظت وشبح حلم الليلة الماضية يخيم عليَّ. أعددت قهوة. رشفت منها. اتصل بي السي الطايع بالهاتف. بادر إلى الاعتذار نيابة عن ربيعة لكونها لم تتصل بعد بالموثق، وأكد لي رغبتها في شراء الشقة. كدت أخبره بأن الشقة قد بيعت، لكن الفضول استبد بي حول علاقة ربيعة بمحمد بوفراح وعلاقتها بإسحاق. سألته عن الفيديوهات التي تنشرها قناة مُحَمَّد بوفراح فبقي صامتا، ثم قال لي:

. زوجتي شاهدت تلك الفيديوهات وحدثتني عنها. سألتْ ربيعة عن الفيديو الذي يتحدث فيه عن علاقتها الجسدية بإسحاق فأخبرتها بأن ذلك مجرد افتراء،وأنها مريضة وبعد شفائها تستطيع أن تقول كل شيء.

سألته:

. وما هو مرضها؟

قال:

. ربيعة مسكونة. يسكنها جني يهودي.

قلت له:

. وهل لها من علاج؟

قال:

. هي لن تعالج عند طبيب، بل عند السي جامع.

سألته:

. ومن هو السي جامع؟

قال:

"ألا تعرفه؟ هو السي جامع أَبَيْنُو السوسي، وكل فاس تعرفه.إذا كنت تأتي إلى سوق الرصيف وتقف عند باعة السمك فلا شك أنك سوف تنظر نحو دكان صغير، شبه مظلم، يقابل البستيونية، وسترى عجوزا نحيلا له لحية تيس، يجلس على مصطبة فوق فروة خروف. ذاك هو السي جامع. وإذا

أرت أن تعرف آ السي عبد الوهاب ما الذي يقوم به في دكانه، فهو يكتب التمائم التي تخفض حرارة الصبي وتمنع ما تصيب به العين الشريرة، وتأتي للعانس بالعريس، وللمرأة العاقر بالحمل، وبالرزق الواسع لمن كسدت تجارته. صدق أو لا تصدق، فكم من عانس تزوجت على يده، وكم من عاقر أتاها الحمل، وكم من تاجر كسدت تجارته فأتاه الرزق، كما أن السي جامع يُخرِج الجن ويداوي البرص".

قلت له:

ـ وهل ترك للأطباء ما يفعلونه؟

قال:

"الحق أنني ما قصدت إلا الخير. آ السي عبد الوهاب هناك الكثير من الأمراض لا يعالجها الطب ويعالجها من أُعْطِيَ لهم ذلك. طلب السي جامع بعض الوقت ليحدد لنا اليوم الذي سوف يقوم فيه بإخراج الجن".

قلت له:

ـ يا أخي حرام عليك. أما كان عليك أن تنصحها بطبيب نفساني؟

قال:

ـ آ السي عبد الوهاب، هذا شأن الفقهاء، لا شأن الأطباء النفسانيين.

تذكرت الطبيب النفساني الذي كنت قد أخذت إليه زوجتي رجاء بوجمعة، فأجرى معها عدة مقابلات، ثم أخبرني بأنها لا تعاني من أي مرض نفساني، وأن الحل في الطلاق.

أردت أن أغير الحديث حول ربيعة ومرضها فأخبرت الطايع بأن الله فتح عليَّ باب الرزق، ففي يوم واحد جاءت عدة حجوزات ل"دارة جلجل"، كما وقعت ثلاثة عقود لبيع ثلاث شقق، عند الموثق. قال لي:

. مبروك. بعد كل هذا الكساد وبوار سوق العقار ها هو الله يأتيك بالرزق. من أتاك بالمشترين؟

قلت له:

. عبر الانترنيت تعرف المشترون على الشقق، والموقع، واتصلوا بي فأحلتهم على الموثق، الذي أعد العقد الأولي للبيع، وهو سوف يتولى باقي الإجراءات.

سألني:

. والشقة التي رغبت ربيعة في شرائها، هل بعتها؟

قلت له:

. بعتها.

سألني:

. وعمولتي كسمسار؟

قلت له:

. أنت تعرف أنني لن أخيبك.

ودعت الطايع، وأخذت أفكر في هذه المرأة الفاتنة بجمالها وما تعانيه.

رغم إعجابي بها فقد وجدت أن الكثير من الغموض يلف حياتها، ورأيت أن أنساها، لا خوفا من تهديد بوفراح، ولكن لأنني خرجت للتو من مشاكل لا تحصى مع طليقتي، وجراحي ما تزال دامية وخسائري المادية لم أعوض منها شيئا، وخاصة الفيلا التي مَلَّكْتُهَا إياها ثم غادرتُها خالي الوفاض بعد الطلاق.

***

استقبلنا في (دارة جلجل) وفدا من السياح، أسكنا بعض أفراده في الغرف العادية وبعضهم الآخر في الغرف الملكية. قدمنا لهم وجبات مكونة من سلاطة الباذنجان والفلافل والجزر، وطاجين لحم الغنم فوقه برقوق معسل ولوز مقلي، وفواكه، مع الشاي وحلوى "كعب الغزال". أدت الفرقة الموسيقية تواش من الطرب الأندلسي، وخلال ذلك وزعنا عليهم برنامج زيارات المآثر التاريخية، ووعدناهم بأن تبدأ في صباح الغد بزيارة لأطلال بني مرين، للإطلال على مدينة فاس من عل، وأخذ الصور مع المدينة وهي تظهر من تحت بكل أطرافها المترامية،ثم شرب الشاي في "فندق المرينيين". تركناهم ينتشرون بين المشرب والحديقة، بينما بعضهم التحقوا بالغرف. عقدت اجتماعا مع العاملين، فأوصيتهم بما عليهم أن يقوموا به، واستمعت إلى أسئلتهم وملاحظاتهم التي ردت عليها نسيمة. ودعت الجميع وغادرت الدارة ليلا، وأنا في تعب شديد. عدت إلى الشقة التي أسكنها. استحممت وجلست قبالة جهاز التلفزيون أتنقل من قناة لأخرى. تابعت الأخبار واستمتعت بأغنية قديمة لوردة، أعادتني إلى زمن الغناء الجميل. رن الهاتف. رأيت رقم هاتف ربيعة. هذا هو التخاطر، فكأن نداء صدر عني فاستجابت

له، فقد كنت أفكر فيها حينما كانت تتصل. فتحت الهاتف. قالت لي بصوت ضاحك:

ـ أهلا بك آ السي عبد الوهاب. اشتقنا لك.

قلت لها:

ـ أهلا وسهلا. كيف حالك؟

قالت:

ـ أنا بخير. لقد استعدت شيئا من عافيتي.

صمتت لحظة ثم قالت لي:

ـ أعرف أن السي الطايع قد أخبرك بكل شيء. أنت لم تعد غريبا عني، وأنا امرأة لا أسرار في حياتي.

قلت لها:

ـ كل ما أتمناه هو شفاؤكِ وعافيتك.

قالت:

ـ لا أعرف هل شفيت أم أن حالتي ما تزال كما كانت، ففي الغيبوبة التي دخلتها لم أر الجن يخرج من جسدي.

قلت لها:

ـ وهل تصدقين أن جنا يسكنك؟

قالت:

ـ الجن يسكن المكان كما يسكن أجساد البشر، وعليك أن تصدق.

قال السي جامع إنه قد خرج بعد أن أذاقه العذاب، والحقيقة أنني أنا من كانت تذوق ذلك العذاب.

قلت لها:

ـ ولماذا تتشككين في أمر خروجه؟

قالت:

ـ هو مجرد شك. الأيام القادمة سوف تكشف لي عن حقيقة الأمر.

قلت لها:

ـ أتمنى لكِ من كل قلبي أن تكوني قد شفيت.

قالت:

ـ وإن لم أُشْفَ، هل ستبقى على مودتك معي؟

قلت لها:

ـ ليس هناك ما يدعوني إلى أن أتخلى عن مودتي.

قالت:

ـ مُحَمَّد بوفراح أرسلته إلى نيم قبل يومين من العمل الذي قام به السي جامع، وتأكدت من أنه قد وصل إلى هناك عندما قدم هاتفه لمدام أنيط فتحدثت معها.

قلت لها:

. حديثه عنك في الفيديو كان مشينا.

قالت:

"التحدي هو لو كان قد صور المرأة التي يتحدث عنها وهي في غرفة نومها، أو لو صورها وهي بنفسها تتحدث وتشرح حالتها. عندما استحال عليه ذلك ترك للسانه أن يقول ما شاء. كلها أيام وينتهي ما بيني وبينه. ثم إن المشاهدين يعلمون أن مثل هذه الفيديوهات تنطوي على الكثير من المبالغة والكذب، ومع ذلك فهم يقبلون على مشاهدتها".

سكتت لحظة ثم قالت وهي تغير مجرى الحديث:

. أخبرني السي الطايع أنك قد بعت الشقة التي وعدتني ببيعها، لكن لديك الكثير من الشقق غيرها، تعرضها للبيع، وفي عدة عمارات.

قلت لها:

. إذا كنتِ ما تزالين راغبة في شراء الشقة، سيكون لكِ ما تريدين.

قالت لي:

. السي عبد الوهاب، إذا كنتَ ستبيعني شقة أخرى غير تلك التي شاهدتها فأنا أرغب في أن أشاهدها قبل أن أذهب إلى الموثق.

قلت لها:

. تشاهدينها في أي وقت تشائين.

قالت:

ـ أرغب في أن أراها في صباح الغد.

أعطيتها موعدا، على العاشرة صباحا، بباب العمارة، وودعتها.

بقيت مضطرب الأفكار، وجذب يجذبني نحو هذه السيدة التي أصبح طيفها يزورني في اليقظة وفي الأحلام. تهيبت من لقائي معها منفردين، فأنا منذ أن أكثر من عامين، ومنذ أن فشلت العلاقة بيني وبين زوجتي السابقة، لم ألتق مع امرأة إلا في الأمور العادية، ولم يخفق قلبي لامرأة. سائحات أجنبيات استقبلناهن في الدارة وكن على جمال باهر، فلم تسحرني إحداهن ولم أذهب بالحديث إلى ما يفتح الباب أمام علاقة ممكنة. أما ربيعة فقد ألهبت مشاعري وأسكنتني في فسيح الأخيلة وهي تحضر أمامي، وها أنا على موعد للقاء بها في الغد، منفردين، لذلك بت ليلتي وأنا أحتمل كل ما يمكن أن يقع بيننا.

أحلام تلك الليالي

في إحدى الليالي رأيت في الحلم أنني أجتمع في مكتبي بدارة جلجل مع نسيمة ومروان. وضعت نسيمة أوراقها أمامنا. فتحت حقيبة يدها. أخرجت منها علبة سجائر وضعتها على المائدة، ثم وضعت يدها عليها. بدت شبه غائبة، كأنها تستحضر لحظة ضائعة. طفرت الدموع من عينيها. أخبرتنا بأنه كان يدخن نفس هذا النوع من السجائر التي أمامها، لكنه الآن تحت الثرى. اشتد بكاؤها. تذكرت أنني كنت قد حضرت عزاء زوجها ومنحتها عطلة أسبوع وبعض المال. لم يرتح بالها، فمنذ أن عادت إلى العمل في إدارة الدارة وهي كلما التقت بأحد من العاملين إلا وتطفر الدموع من عينيها. واسيناها جميعا لكن حزنها على زوجها كان فوق الاحتمال. حاول مروان أن يهدئها، فرفعت يدها عن علبة السجائر وأخرجت منها واحدة بأصابع مرتعشة، واقتربت من مروان فأشعل سيجارتها. نفثت الدخان في الهواء. أصابني السعال. رأتني وأنا أهم بالخروج من قاعة الاجتماع فاعتذرتْ وقامت خارجة. رمتِ السيجارة في الخارج ثم عادت إلى مكان جلوسها. أخذت علبة السجائر وأخفتها في حقيبة يدها. قالت لنا:

ـ لم أصبح مدمنة على التدخين إلا بعد وفاة المرحوم زوجي، ولا أدخن إلا نفس نوع السجائر التي كان يدخنها.

قلت لها:

ـ قلتِ إنه قد أصيب بالسرطان. ألم يمكن ذلك رادعا لك عن التدخين؟

قالت:

ـ أحب أن أعيش نفس الحياة التي عاشها وأن أموت بالسرطان كما مات.

طفرت من عينيها الدموع. بكت بحرقة. بكي مروان. هو الآخر توفيت زوجته قبل عام. عرفت من بكائه أنه يتذكر الطريقة الفظيعة التي ماتت بها زوجته، فقد أكل لهيب الحريق الذي شب في البيت سائر جسدها حتى تفحمت عظامها. نظرت إلى نسيمة ومروان وهما يجلسان أمامي ويشهقان بالبكاء.أشفقت عليهما، فكل منهما فقد زوجه، وفي فترة متقاربة. أصبحا يقيمان مناحة في مكتب الاجتماع. لم أستطع أن ألومهما على حزن غامر انتابهما. لكي لا أبقى متفرجا، أردت لهما أن يخرجا من حالة البكاء، فقلت لهما:

ـ أنتَ ماتت زوجتك، وأنتِ مات زوجك. تزوجا لتستمر الحياة.

قالت نسيمة:

ـ حياتي لن تستمر بدون المرحوم.

وقال مروان:

ـ ها هي حياتي تستمر، وأنا أعيش على ذكرى المرحومة.

قلت لهما:

ـ إنما أرت لكما أن تستمر حياتكما بعيدا عن الشكوى والبكاء والعيش في الفاجعة. ثمة فرح دائم ينتظر الإنسان، وعليه أن يفتح له الأبواب.

قالت وسيمة:

ـ الفرح!

أجهشتْ بالبكاء. أخفت وجهها بين كفيها. تدفق الدمع من عينيّ. دخلت ربيعة القاعة بطلعتها البهية وقالت لهما:

ـ لو كنا نعيش الماضي بأحزانه ومآسيه لما تطلعنا إلى المستقبل.

سألني مروان:

ـ السي عبد الوهاب، أهذه هي السيدة التي كانت تطلبك بالهاتف، وكنت تنزعج من مكالماتها؟

قلت له:

ـ هي أو شبيهتها.

قالت:

ـ بل أنا هي. ربيعة السعدي، بدمها ولحمها.

قالت لي وسيمة:

ـ السي عبد الوهاب، أنت رئيس عملنا، فلماذا تخفي عنا عواطفك. ها هي عروسك قد أتت.

قلت:

ـ عروسي أنا؟

وقال لي مروان:

ـ دعنا نبارك لك آ السي عبد الوهاب، وللسيدة.

قالت لهما:

ـ بارك الله فيكما، إنما أنا لا أحب أن أفرض عليه نفسي. سوف أنتظر إلى أن يختارني، وإن لم يخترني فالمودة سوف تبقى بيننا.

قالت لي وسيمة:

ـ السي عبد الوهاب، الحظ أتاك وهو بين يديك.

أحسست بالحرج، فأنا لم أقرر الزواج من ربيعة أو من غيرها، والجرح الذي سببته لي طليقتي رجاء بو جمعة ما يزال نازفا. لكن تذكرت صديقا كان يقول: "جراح المرأة لا تُداوى إلا بجراح امرأة أخرى".

صحوت من نومي وعبارة ذلك الصديق على طرف لساني. ثم أخذت أسترجع الحلم.

***

طوال المساء، تابعت في "دارة جلجل" ظروف استضافة بعض السياح لتكون على أحسن حال. اتجهت نحو المطبخ. راقبت لوائح الوجبات، ثم تناولت عشاء خفيفا، ودخلت مكتبي فجلست أمام الحاسوب أراجع لوائح السياح الجدد الذين سوف نستضيفهم. أوصيت مروان بالمهام التي عليه أن يقوم بها في صباح الغد، ثم عدت إلى الشقة التي أسكنها. استحممت، وخلدت إلى الفراش. أجريت عدة مكالمات مع أناس أتعامل معهم. أخذت

أتجول بين القنوات التلفزيونية، إلى أن أطفأت التلفزيون والأباجورة. أخذني النوم. بعد حين نهضت فزعا، وأخذت أسترجع كابوسا رأيت فيه مُحَمَّد بوفراح يحمل سكينا ويهم بأن يغرزها في قلبي، لكن يد ربيعة امتدت إلى يده فانتزعت منه السكين وغرزتها في قلبه، ثم صرخت:

. مات! أنا قتلته، وسوف أدخل السجن.

ثم سألتني:

.كيف نتخلص من الجثة؟

قلت لها:

.كيفما تخلصنا منها فسوف يفضح الأمر. أنا سأدعو البوليس.

قالت:

. لو لم أقتله لكان قد قتلك.

أخذت تبكي وقالت:

. لا أطيق الحياة في السجن.

أضأت الأباجورة. شربت كوبا من الماء. جفاني النوم وأنا أسترجع تفاصيل ما رأيته في الحلم. أرحت رأسي على الوسادة. أتتني صورة ربيعة كما رأيتها في الحلم، وهي في غاية الذعر، وقد اختلطت زينة وجهها فظهر الكحل وهو ينحدر مع الدموع على خديها. بما ظهر عليها من رعب، أصبحت مرعبة. تناولت حبة مهدئ وأخذت أقنع نفسي بأن ما رأيته ليس سوى حلم مزعج، فسرته بتهديد مُحَمَّد بوفراح الذي وجهه إليّ.

قضيت نهاري في الدارة أتابع إقامة السياح وجولاتهم في المدينة، ثم عدت إلى الشقة. استحممت وجلست أتابع ما تعرضه القنوات التلفزيونية، إلى أن رسوت على شريط سينمائي ظهرت فيه ممثلة فارعة الطول ناهدة الصدر متألقة العينين، فذكرتني بربيعة. الشبه قوي بينهما، وكأنها هيمن حيث الوجه والقامة واللفتات والحركات، ومع متابعتي لأحداث الشريط، وظهور أبطال آخرين، وجدت أنني أنتظر المشاهد التي تظهر فيها تلك البطلة، وإن تأخر ذلك وسارت الأحداث حيث لا تحضر، فأنا أنتظر بفارغ الصبر ظهورها حتى أتأكد من الشبه القائم بينها وبين ربيعة. إن أنكرت أنني مفتون بها فأنا أكذب على نفسي، ومع ذلك فأنا لن أخوض معها أية تجربة، ولن أسمح لعواطفي بأن تندفع نحوها. لكني لم أمنع نفسي من أرى بما يملأ عينيَّ ممثلة في شريط سينمائي تشبهها شديد الشبه. خلال مشاهدتي للشريط بقيت أفكر في أنني أُسقط صورة ربيعة على صورة الممثلة، وسألت نفسي إن ذلك مجرد إعجاب أم أنه يتجاوز ذلك إلى دفق عاطفي غامض لا أحب أن أعترف به لنفسي.

جفاني النوم. تفطنت إلى أنني كنت شارد البال وطيف ربيعة يزورني فأراها حلوة اللفتات، ضحوكا، متألقة الوجه، وأنا أهيم في وجهها ومفاتنها. قلت لنفسي إن حضور طيفها دليل على ما أعيشه من حرمان عاطفي بعد أن تفسخت كل العرى بيني وبين رجاء، فأصبحت المرأة تناديني وتأتي إلي في صورة ربيعة، وها أنا إن فكرت في أن أصدها عني أجد طيفها يأتي إليَّ على حين غرة، وإن كنت شديد الضيق فهو يأتيني بالفرح والأماني.

خلدت إلى النوم. رأيت في المنام أنني أسبح في ماء شديد العمق، فإن انقلبتُ من سطحه نحو لجته لا أرى سوى خضرة غامقة، وإن عدت إلى

السباحة على السطح أرى أمامي قصرا مهجورا يظهر على بعد. لم يكن بحرا أو سدا يجتمع فيه الماء، وما هو ببحيرة، فالماء لا يتحرك، ولا شيء يظهر في الأفق، بينما يظهر القصر المهجور على مسافة بعيدة. سبحت طويلا وأنا أتجه نحو البناء الشامخ الذي يظهر أمامي إلى أن كل ساعداي فاسترخيت فوق الماء أطلب شيئا من الراحة لأواصل السباحة، غير أنني كلما سبحت وجدفت بذراعي أشعر وكأني أبقى في مكاني، والمسافة بيني وبين القصر تبقى بعيدة كما كانت. أصابتني الحيرة، وخشيت أن يعم الظلام وأنا في لجة ذلك الماء، وذلك ما كان، فقد تحولت زرقة السماء إلى حمرة داكنة ثم غابت الشمس وبدأ الظلام يخيم، كما أصبح الماء باردا فأخذت أشعر بأطرافي وهي تتجمد. عدت أتمدد مسترخيا فوق الماء، أشاهد طلوع القمر وأتأمل حركات النجوم وهي تسبح سماء هذا الكون الواسعة. كان ذلك مسليا. أخذ الليل يتقدم. تطلعت في الظلام إلى مكان البناء الشامخ. رأيت نورايظهر في إحدى شرفاته فعلمت أنه ليس مهجورا. قضيت ليلتي في لجة ذلك الماء إلى أن طلع النهار واتضحت لي معالم القصر. رأيت امرأة تقف على الشرفة وتشير لي بيديها. أشرت لها بيد بينما اليد الأخرى تحافظ على توازن جسدي في الماء. سبحت في اتجاهها بكل قواي. هل هي التي كانت تقترب مني أم أنا من أخذ يسبح بقوة ليقترب منها؟ على قرب منها تبينت لي ملامحهافعرفت أنها ربيعة بقامتها ووجهها. شجعتني على أن أقطع المسافة الباقية لأصل إليها. بذلت كل ما أستطيع وهي تنتظرني إلى أن أصبحت على حافة القصرفمدت لي يدها وصعدت، ثم عانقتني وعانقتها، وقالت لي:

ـ مضى زمن طويل وأنا أنتظرك ها، في هذا المكان.

فقلت لها:

ـ وزمن طويل آخر قد مضى وأنا في لجة الماء.

ضحكت وقالت لي:

ـ أنت في البحر وأنا في البر.

سألتها:

ـ أهو بحر؟

قالت:

ـ بحر أو ما يشبه البحر.

أخذتني من يدي ودخلنا القصر. وجدت حيطانه متهدمة وجزء من سقفه قد سقط والأتربة تعلو المكان. أجلستني إلى مائدة فوجدت فوقها تفاحة وسكينا، وطلبت مني أن أتناول التفاحة، وحينما أخذت أقشرها جرحت أحد أصابعي فامتزج الدم بالتفاحة. أخذت تضحك، وأخبرتني بأن أصحاب القصر كانوا يجلسون إلى هذه المائدة لتناول الطعام، وكانوا كلما قشروا تفاحا بسكين إلا ويجرحون أصابعهم. عانقتني وهي تبتسم، وخلال ذلك العناق صحوت فوجدت نفسي أعانق الفراغ.

نهضت من الفراش. وقفت في الشرفة أستعيد الحلم. تراءت لي في السماء نجوم كتلك التي رأيتها وأنا في لجة الماء، وتراءى لي وجه ربيعة النير وأنا أراه في الظلام. شعرت ببرد كذلك الذي بت في الماء وأنا أشعر به، وأطرافي تتجمد، فاقشعر سائر جسدي. أغلقت باب الشرفة. عدت إلى

الفراش. تدثرت بغطاء صوفي. غفوت.

***

بعد أن دخلت في النعاس بدأت أرى وأنا بين النوم واليقظة أنني أمشي مع ربيعة تحت المطر، يدها اليمنى تحت إبطي وأنا بيدي اليسرى أحمل مطرية. شممت منها رائحة الأنثى، وكان عطرها الفواح يوقظ مكامني، وشعرها بين لحظة وأخرى يرف حول عنقي وخدي بما يأخذه من ريح، وخطواتنا تتناغم ونحن نسير في شارع تصطف على جانبيه الأشجار والمحلات التجارية. طال سيرنا والأنثى توقظ مكامن جسدي. همست لها بكلمات رقيقة وهمست لي. لثمت خدها ولثمت خدي. سعادة غامرة غمرت روحي. لم يوصلنا ذلك الشارع الذي كنا نسير فيه إلى أي مكان آخر، ولم نتوقف عن السير والمطر الغزير يتدفق من السماء. شعرت بشيء من القلق لكون ذلك الشارع لا نهاية له، وقد أتعبنا السير وبللنا المطر. صحوت فأخذت أبحث عن ربيعة بجانبي وعندما لم أجدها أحسست بالخسران. شربت كأس ماء وجلست على الفراش أستعيد ما رأيته في الحلم.

***

مضت الأيام وأنا أنتظر أن تصلني بعض الأخبار عن ربيعة، فقد استبد بي الفضول حول ما إذا كان جامع قد قام بإخراج الجن، أو كما أعتقد، قام بإيهامها بأنه قد أخرجه. لم أرغب في أن أتصل بالطايع حتى لا يظن أنني أهتم بربيعة، ولم أشأ أن أتصل بها عبر الهاتف، خوفا من إحراجها. زاد فضولي وبقيت أنتظر أن تأتيني بعض الأخبار.

الباذخة الجمال

شعرت بالارتخاء لكوني لم أنم بما فيه الكفاية. حلقت لحيتي، واستحممت، ثم ارتديت أفضل ملابسي، وتعطرت. تلفنت لمراد ونسيمة فأوصيتهما بما يجب القيام به في الدارة. خرجت من الشقة لأفطر في المقهى المجاور للعمارة. خلال تناولي للفطور كانت عيني على ساعة يدي، وعلى الطريق، وأنا أتطلع إلى جانبيه منتظرا أن تأتي ربيعة من أحدهما. لم تتأخر عن موعدها، فقد رأيتها تأتي باذخة الجمال مكتملة الزينة مصفوفة الشعر، على عينيها نظارة سوداء، ترتدي معطفا رماني اللون، من تحته قميص أسود وسروال ضيق،وتنتعل حذاء بلون المعطف، وتضع على كتفها حقيبة بنفس اللون. عندما اقتربت مني وقفت أستقبلها. مدت لي يدها للمصافحة وابتسمت. تضوعت رائحة عطرها. تبادنا النظر. نزعت النظارة السوداء عن عينيها ثم أغرقت نظرها في نظري كأنها تتفحص ما وراء نظراتي، ثم ابتسمت. سحرتني طلعتها. سرنا نحو باب العمارة وأنا أسترق النظر إلى جسدها المتناسق وأناقتها وأتطلع إلى ابتسامتها وأتنفس من عطرها الفواح. فتحت الباب. ارتبكت خطواتي. شعرت باضطراب شديد حاولت أن أدفعه عني ونحن نصعد الأدراج. سألتني:

. ألا يوجد مصعد؟

قلت لها:

. لا يوجد إلا في العمارات التي تصل طوابقها إلى أربعة فما فوق.

وصلنا إلى الطابق الثالث حيث توجد الشقة التي أقيم فيها. تعمدت ألا أطلعها عليها حتى لا تلاحظ الفوضى التي تعمها وتدرك من الملابس المبعثرة وبقايا الطعام التي على المائدة أن أحدا يقيم بها، وقد تظن أن ذلك الشخص هو أنا، لذلك أدخلتها إلى شقة مجاورة، عارية من أي أثاث، حيطانها بيضاء وسقفها أبيض. جالت بنظرها في الشقة، فاطلعت على الغرف والحمام والمطبخ، وتطلعت إلى الصباغة والزليج والرفوف التي في المطبخ ثم قالت لي:

ـ الشقة أنا رأيتها.

سألتها:

ـ هل أعجبتك؟

قالت وهي تنظر إليَّ:

ـ كل ما يأتي من يدك عسل.

قلت لها وأنا أضحك:

ـ العسل له ثمن.

قالت:

ـ وأنا لن أملك الشقة دون أن أدفع ثمنها.

وقفنا وسط الغرفة الفارغة ننظر إلى بعضنا، في لحظة صفر، ضاع فيها الكلام ولم يجد أي واحد منا ما يقوله للآخر. ابتسمت وهي تداري ما يمكن أن نكون قد شعرنا به من ارتباك.نظرت حولها، ولما لم تجد مكانا للجلوس

قالت لي:

. لا يوجد كرسي. أنا أرغب في الجلوس.

قلت لها:

. انتظري.

خرجت من الشقة ثم أغلقت بابها من الخارج حتى لا تلحق بي. فتحت الشقة التي أقيم فيها. أخذت كرسيا. أغلقت الباب. أتيت إليها وأنا أحمل الكرسي فقدمته لها، جلست عليه. وضعت رِجْلاً على رِجل. تطلعتُ إلى حذائها الجديد ذي الكعب العالي، وإلى سروالها الذي لا يصل الكعب، ويكشف عن جزء أسفل من ساق كأنها منحوتة من العاج. حاولت أن أحتفظ بوقاري. سألتني:

. لماذا أغلقتَ عليَّ باب الشقة من الخارج، هل خفت أن أهرب منك؟

قلت لها ضاحكا:

. إذا شئت أن تهربي فاهربي.

قالت:

. لن أهرب، فأنا باقية معك.

سوتْ خصلات شعرها على كتفيها. نظرتُ إليَّ بما يشيع في عينيها من ابتهاج ومرح، ثم سألتني:

. من أين أتيت بالكرسي؟

قلت لها:

ـ من شقة أخرى.

قالت:

ـ أهي تلك التي تقيم فيها؟ أخبرني السي الطايع بأنك تقيم في إحدى شقق هذه العمارة، بعد أن تخليتَ لزوجتك السابقة عن الفيلا التي كنتَ قد كتبتها لها باسمها.

قلت لها:

ـ ذلك ما كان.

قالت:

ـ السي الطايع يذكرك بالخير، ويتأسف لكونك كنت ضحية امرأة لا تستحقك.

قلت لها:

ـ أشكر له تعاطفه معي، لكني لا أحب أن يجعل أحد من سيرة حياتي قصة يحكيها للآخرين، حتى وهو لا يعرف تفاصيلها.

قالت لي:

ـ هذا هو حال البشر، ينسون مآسيهم ويجعلون من حياة الآخرين مآس يحكونها كما يحلو لهم، وبعدة روايات.

سكتت لحظة ثم قالت:

.كنت على وشك أن أغادر الشقة بعد أن رأيتها، لكن الغرفة البيضاء شغلتني فأحببت أن أطيل البقاء معك.

قلت لها:

. مرحبا.

في الغرفة البيضاء

قالت لي ربيعة:

. الله يخليك، هلا أتيت بكرسي آخر لتجلس عليه قبالتي، حتى تكون العين في العين؟

قلت لها:

. سوف آتي به.

أتيت بكرسي آخر من شقة الطابق الثالث، فقالت لي:

. السي عبد الوهاب. أنا وأنت في غرفة فارغة. الجدران بيضاء والسقف أبيض، وامرأة تجلس على كرسي، وعلى كرسي آخر يجلس قبالتها رجل لطيف. أليس هذا المشهد يستحق التصوير؟

قلت لها:

. لا توجد أضواء، ولا كاميرا، ولا أحد يقوم بالتصوير.

قالت:

. بدون أضواء، أنت تقوم بالتصوير بهاتفك الذكي. أنا سوف أبوح لك. في صدري تعتمل عدة أفكار ومشاعر أحب أن أبوح بها حتى أرتاح.

رأتني حائرا فسألتني:

. ألست موافقا؟

سألتها:

ـ أهو فيديو ترغبين في نشره على اليوتيوب؟

قالت:

"ليس بالضرورة، وإذا كنتَ توافق على أن تسمع بوحي فافتح الكاميرا وقم بالتصوير وتسجيل الصوت. ها أنا أجلس قبالتك في هذه الغرفة البيضاء، الخالية من أي ديكور أو أثاث أو لوحات على الجدران. من أين أبدأ؟ أترك الآن ربيعة، الطفلة الغريرة التي لم تعش طفولتها بما فيه الكفاية، وموت الأم وأنا في الثامنة من عمري، وعيشي مع زوجة أبي، وأبدأ من المحن التي عشتها وأنا في بداية شبابي. محن كان السبب فيها رجال عرفتهم. هل تحب أن أبوح لك بتفاصيل ما عشته في علاقات مع الآخرين،كانت كلها مطبوعة بالقلق والمعاناة؟ سأكون صادقة، ولن أمارس أية رقابة على نفسي، بل إنني سوف أتحرر من كل الضغوط لأقدم لك صورا صادقة عن الظروف التي التقيت فيها مع أولائك الرجال، وما صارت إليه علاقاتي معهم، لتبقى الندوب في النفس لا يمحوها النسيان. ها أنا الآن أمامك، امرأة في الخامسة والثلاثين. عشت حياة صعبة، فلم تكن رغبتي في الهجرة إلى فرنسا سوى هروب من واقع مر عشته هنا في المغرب، لأواجه واقعا أَمَرَّ هناك. هل لك أن تشجعني على الاسترسال في استرجاع ما عشته، وذلك بنظراتك إليَّ وأنت تشجعني على المضي في سرد التفاصيل واستحضار اللحظات ووجوه من عرفتهم".

قلت لها:

- سوف أحاول.

قالت:

- صَوِّر.

شغلت الفيديو بالصوت والصورة. ركزت الكاميرا حول وجهها. أشرت لها بيدي أن تبدأ. قالت:

"قبل قليل، في هذه الغرفة بالذات، خطرت على بالي فكرة تصوير فيديو أعرض فيه بعض تفاصيل حياتي، أما قبل هذه اللحظة، فلم يخطر ببالي ذلك، وما كنت أتمنى أن أقبل عليه هو أن أدرس التمثيل السينمائي وأن أقوم بأداء دور بطلة حياتها تشبه حياتي، وهي لن تكون سوى مهاجرة عاشت الغربة ولقيت ما لقيت من محن، وارتكبت ما ارتكبت من أخطاء! فيما قبل، لم أكن متحمسة لكون بعض الناس يحكون أسرار حياتهم عبر فيديوهات منشورة على اليوتيوب، ليشنعوا بأنفسهم أو بالآخرين، أو ليقدموا صورة يظهرون فيها كضحايا وكل الآخرين جلادين. الحديث عن الذات لا ينبغي له أن يؤدي إلى النيل من الآخرين والتعريض بهم، فالبوح لا ينبغي له أن يكون مناسبة للانتقام، كما أنه لا يكون إلا أمام شخص حميم، قريب من النفس، يتقاسم معنا الأفكار والمشاعر، ولا يكون مع أشخاص غرباء، تختلف تجاربهم عن تجاربنا ونظرتهم للحياة عن نظرتنا. التشهير بالذات، وإثارة الشفقة عن طريق الشكوى والبكاء ليس لهما أي مبرر. من يسرد قصة حياته، أو تجارب منها، لا ينبغي له أن يسعى إلى المبالغات

وتهويل بعض المواقف قصد إدهاش المشاهدين بغرابة ما يسرده عليهم، فمن الدناءة أن يتاجر الإنسان بالمحن التي عاشها، لينال المال ويصل إلى الشهرة، فكم يحتاج المرء من الشجاعة ليتحدث عن نفسه دون خوف، وليتعرض لأخطائه وهو يعترف بأنه من ارتكبها، دون شعور بعقدة الذنب، فليس من بين البشر من ليست له أخطاء؟ ذلك ما فكرت فيه وأنا أبحث عن البداية المناسبة لبدء سيرتي، فقد عرفت رجالا كثيرين وأقمت معهم بعض العلاقات، فكانوا وبالا عليَّ. عندما أتأمل تلك العلاقات، أخلص إلى أننا لا نخطط لكي نلتقي مع الآخرين، فالصدف هي التي تجعلنا نلتقي بهم، لذلك فنحن لا نختارهم إلا بما نتوهم أنه اختيار، بل إنهم، صدفة، يدخلون حياتنا ويصبح لهم تأثير كبير في مساراتها. قد يصدق هذا عليَّ وعلى غيري، ومع ذلك فأنا لا أدين أحدا إلا بما ارتبك من أخطاء، كما أن حديثي ليس مجرد حنين إلى الماضي، فما عشته في ذلك الماضي لا أرغب في أن أعيشه مرة أخرى".

توقفت عن الكلام. غامت عيناها وطفرت منهما الدموع. التقطت لها عدة لقطات وأنا أركز على ملامحها الحزينة ودموعها المتهاوية على خديها. تململت في جلستها فوق الكرسي. بدت ساهمة، تخفض نظرها وكأنها تجمع شتات أفكار أو تحاول أن تقبض على تفاصيل لم تسعفها بها الذاكرة. كفكفت دموعها بمنديل ورقي أخرجته من حقيبة يدها، وتنهدت، ثم قالت لي:

ـ أعتذر لك آ السي عبد الوهاب. أوقف التصوير. في بعض الأحيان تستعصي الذكريات ويصعب على الإنسان أن يستعيد ماضيه.

سألتها:

ـ هل أنتِ محرجة من شيء؟

قالت:

"بعد الخسارات التي عشتها لم يعد هناك ما يحرجني. أحيانا أشبه هذه الحياة التي نعيشها بنكتة سمجة لا تضحك أحدا، ثم يصيبني الحزن لكون الإنسان لا يستطيع أن يخطط لحياته كما يريد، وبحرية مطلقة، بل إنه ينساق مع الظروف ويترك لها أن تتحكم في مساره ومستقبله. مرات حاولت أن أنهض من كبوتي، وأن أشحذ فيَّ العزم والإرادة، فكنت لا أستطيع أن أقاوم الأمواج التي تتلاطم بي في بحر هائج لا ساحل له. في بعض المراحل التي عشتها صارت حياتي هباء، وأنا اليوم أحاول أن أجد معنى آخر لحياتي بعودتي إلى المغرب والعيش في مدينتي فاس، وما دمت أن أخصص الحديث عن سيرتي لعلاقاتي مع من عرفتهم، فأنا أشعر باضطراب شديد، ولا أعرف من أين أبدا،ففي لحظة تحضر الذكريات وتتداخل أزمنها وأمكنتها، وفي لحظة أخرى يمحي كل ما عشته وأصبح أمام بياض يشبه بياض هذه الغرفة، فلا أستطع أن أتذكر شيئا مما مضى".

قلت لها:

ـ لا بأس. أنت تحتاجين إلى شيء من الراحة.

قالت:

ـ ليست شجاعة الكلام هي التي خذلتني، بل إن تفاصيل الحياة التي

عشتها قد حضرت كلها دفعة واحدة، فتداخلت الأماكن والأزمنة، واختلطت أمامي الوجوه.

نهضت عن الكرسي. أطرقت برأسها لحظة، ثم قالت لي:

ـ أرغب في الذهاب.

تفحصت وجهها بنظراتي فرأيت طبقات من الأسى تتلبد حوله. خرجنا من الشقة الفارغة. فكرت في أن أدعوها إلى الشقة التي أقيم فيها لكي تستريح، ثم عدلت عن ذلك، حتى لا تظن بي بعض الظنون. نزلنا الأدراج وخرجنا من باب العمارة. اقترحت عليها أن أوصلها بالسيارة إلى المكان الذي تقصده، فاعتذرت عن ذلك، وأخبرتني بأنها سوف تعود إلى بيت السي الطايع لتستريح قليلا ثم تذهب إلى الموثق. قبل أن أودعها التقت عيوننا في نظرات غامضة، مفعمة بالأسى. ودعتها، فسارت وأنا أرقبها من الخلف.

بعد عودتي في المساء إلى العمارة لم أدخل الشقة التي أقيم فيها، فوجدت نفسي واقفا أمام الشقة الفارغة التي كنا في صباح هذا اليوم نجلس في صالتها أنا وربيعة. فتحت الباب، ودخلتها. شممت رائحة العطر النسائي. مثلت أمامي. استرجعت لحظات جلوسها على الكرسي وهي تحاول أن تستعيد تفاصيل حياتها، وأنا أجلس قبالتها على كرسي آخر، وأصور، وأصغي إلى حديثها. باعدت ما بين الكرسيين ثم جلست على الكرسي الذي كنت أجلس عليه، وأخذت استعيد ما قالته عن الصدفة التي تتحكم في العلاقات مع الآخرين، وربطت بين ذلك وبين ما عشته من عذاب مع

طليقتي رجاء بوجمعة. علاقة بدأت بالفرح الذي لم يدم إلا لشهر أو شهرين ثم تحولت إلى خصومات يومية كما تحول الحب إلى كراهية، والطمأنينة إلى قلق يومي. الصدفة التي تؤدي إلى العلاقات بين الناس قد تختلف في التفاصيل والوجوه والأسماء والأماكن، لكن الجوهر هو أن الإنسان لا يختار من يعيشون حوله، ومن تكون له معهم علاقات.

الصورة التي ظهرت بها ربيعة أمامي، سواء من خلال مكالماتنا في الهاتف أو من خلال اللقاءات التي جرت بيننا هي أنها امرأة ضحوك، تقاوم ما يثوي في داخلها من محن بالضحك، وتجعل منه وسيلة للتسرية عن النفس، وأنا لم أنس ما حكته لي عن تلك الليلة التي أضحكت فيها الطايع حتى إنها هي وزوجته قد خافتا عليه من يصاب بنوبة قلبية؛ لكن الأسى الذي رأيته في عينيها أذهلني، فهي تستطيع أن ترتسم البسمة على شفتيها وأن يهلل وجهها بالفرح، وأن تضحك بما يُضحك، لكن باطنها مسكون بالأسرار والجراح، بخلافي أنا، الجاد في كل شيء، الذي لا يضحك لما يُضحك الآخرين، ولا يتسلى بالمسليات، وإنما يحمل في داخله حزنا دفينا يمنعه من كل ذلك.

كأني أرى ربيعة تجلس قبالتي على الكرسي، وجفن عينها اليسرى يرف، وجانب من شفتها السفلى يتمدد قليلا، وفرعها يتحرك فوق الكرسي، وعيناها تنظران إلى عيني وهي تضع كوعها على ركبتها وتسند وجهها بيدها. تناهي إلى سمعي حديثها وهي تنظر إليّ، وتبحث عن الكلمات إذا لم تسعفها، وجاءتني صورتها وهي تحضر في فراغ الغرفة، فرأيت أن آخذ تلك الصورة معي وأغادر الشقة لأدخل الشقة الأخرى التي أقيم فيها، وإن

أخذتها معي فما الذي سوف أفعله بها، هل أسكنها في حناياي أم أحملها في شغاف القلب وأطوف بها حول العالم؟

حينما خرجت من الغرفة البيضاء بقيت أشم رائحة عطرها. دخلت الشقة التي أسكنها ثم وقفت في وسطها وأنا أشعر بالحيرة، فلم أدر هل عليَّ أن أستحم، أم أؤجل ذلك وأفتح الهاتف لأقوم ببعض المكالمات. جلست على فراش في الصالة وأنا ضائع لا أعرف ما عليَّ أن أفعل. مرة أخرى داهمتني رائحة عطر ربيعة فعرفت أنها قد بقيت في أنفي. واجهت نفسي بالسؤال: هل أنا أحب ربيعة، وما معني أن أحب امرأة أتت بها الصدفة إليّ، وأنا لا أعرف شيئا عن مزاجها وتقلباته وتجاربها السابقة وما رسخته في شخصيتها من ردود فعل، وهل أنا في حاجة إلى الحب، لأنفس عن عواطفي الفياضة، وأن أجد نصفي الآخر كما يقال، بعد أن لم أجد في زواج فاشل مع طليقتي رجاء بو جمعة؟

حيرتني الأسئلة، وبقيت أنظر إلى الفراغ فأرى ربيعة، باذخة الجمال، وهي تمثل أمامي.

أخذت الهاتف دون شعور ثم اتصلت بربيعة. أتاني صوتها:

ـ السي عبد الوهاب. مساء الخير.

قلت لها:

ـ أهلا. كيف حالك؟

قالت:

. أنا بخير. في صباح هذا اليوم، وبعد أن تركتك، قصدت الموثق وسلمته الوثائق المطلوبة، ونصف ثمن الشقة. سلمني وصلا، وهو في انتظار أن تزوره لكي توقع عقد البيع الأولي.

قلت لها:

. مبروك.

قالت:

. بارك الله فيك. سأكون جارة لك. هذا إذا لم ترحل للسكن في فيلا جديدة يفتح الله عليك بها.

قلت لها:

. جوارك أفضل لي أينما كان.

ثم سألتها:

. ربيعة، هل تحبينني كما أحبك؟

ضحكت وقالت:

. حب الأخت لأختها، والصديقة لصديقها. أنا لا أعرف ما تعنيه بهذا السؤال.

سألتها:

. هل تحبين أن تدفعي بي إلى اعتراف بعواطفي تجاهك؟

قالت:

"أعرف أنها عواطف نبيلة. إذا كنت تقصد شيئا آخر، فليس قلبي من حجر لكني كلما انفتحت على رجل وضاحكته يحسب أنني قد أردت أن أدخل قلبه، أو أن أوقع به في دائرة علاقة اسمها الحب. الحب آ السي عبد الوهاب خدعة كبيرة نتوهم من خلالها أن قلبين قد تساكنا مع بعضهما، لذلك أصبح العالم ورديا، والأماني أصبحت قريبة من التحقيق، بينما واقع العلاقة يثبت أن كل ذلك كان مجرد أوهام وأحلام. لا بأس بأن يحلم كل من الرجل والمرأة بحب يملأ القلب ويحقق سعادة مؤقتة وربما يفتح الطريق أمام الزواج والإنجاب، لكن كل ذلك ينتهي إلى الخسارات. وأنت آ السي عبد الوهاب، تسألني هل أحبك كما تحبني. سؤالك لا يتطلب سوى جواب واحد، هو أنني أحبك كما تحب الأخت أخاها، وأنا لا أرغب في أن تندفع عواطفك في اتجاه آخر، لأنك إن كان عليك أن تعشق، فعليك عليك تعشق امرأة أخرى غيري، لم تعش التجارب والمحن التي عشتها ولم تعرف رجالا في تجاربها السابقة مثل الرجال الذين عرفتهم".

قلت لها:

ـ أنتِ جميلة.

قالت:

ـ إذا كنت تراني جميلة فأنا لا أعرض جمالي أمام الرجال. أتزين وأتجمل من أجل أن أرى نفسي جميلة، وليس ذلك بهدف الإغراء.

قلت لها:

. أنا أزداد احتراما لك، وأنتِ تكبرين في عيني.

قالت:

. كما أنت أ السي عبد الوهاب قد كبرت في عيني من خلال حديث السي الطايع عنك.

سألتها:

. متى سوف أراك لتبوحي لي بأسرار حياتك؟

ضحكت وقالت:

. هل أصبحت مهتما بحياتي الخاصة؟

قلت لها:

"بصراحة، فأنت امرأة، فضلا عن جمالك، غنية بالأفكار والتجارب، وأنا أجد نفسي مشدودا إلى الاستماع إلى تجاربك، لا من قبيل الفضول، ولكن لكونها تعبر عن أبعاد اجتماعية في غاية الأهمية لكونها تعبر عن مجتمعنا وتحولاته. إن كنتِ قد عشتِ تجربة الهجرة فأنتِ شاهدة على شيء مهم، هو علاقة الحب بين المهاجرين، وأي حب، أهو حب المصلحة، أم حب الجسد، أم حب غامض لا يفهمه أحد، تلتقي فيه المشاعر وتتكون الصداقات ثم يكون الغدر وتأتي الخيانة؟ عشت في دارة جلجل مع السياح الأجانب التي يقيمون في الدارة، ولكوني قد فشلت في الحب مع زوجتي السابقة فقد كنت ألحظ أزواجا من الأجانب، ألمان وأمريكيين ويابانيين، وهم

يمارسون علاقتهم الزوجية خلال إقامتهم، فلم نسمع صراخا ولم نلحظ امرأة تكشر في وجه زوجها، وكل ما لاحظناه هو أن الأزواج يحققون السعادة لبعضهم، ويعيشونها معهم، فما بال المغاربة والعرب منكودين، يعيشون النكد ويُنكدون على بعضهم! عندما سافرت مع رجاء بو جمعة إلى تركيا افتعلت الكثير من الخصومات، وتحملت منها غضبها الذي لا مبرر له، ومع ذلك كانت هي التي قطعت أيام العطلة وعادت إلى المغرب".

قالت:

. لا أشك في أن الصدفة التي تحدثت عنها هي التي تجمع بين أناس تختلف طباعهم وأمزجتهم.

قلت لها:

. والصدفة التي جمعتني بكِ؟

قالت:

. لن تكون إلا صدفة سعيدة.

قلت لها:

. سوف أوفر لك مكانا مناسبا تبوحين فيه، في دارة جلجل.

قالت:

. أشكرك. قريبا سوف تصبح الشقة في ملكي، وستكون مكاني الحميم، لذلك لن أبوح إلا فيها.

سألتها:

. حتى وهي فارغة؟

ردت:

. فراغها يشبه فراغ الروح وحنينها إلى يقين لم يوجد.

قلت لها:

. وهل سيكون حديثا من الروح إلى الروح؟

قالت:

. كما أتصور. لا تنس أن تمر على الموثق لتوقع العقد.

أكدت لها أنني لن أنسى ذلك. عبرت لي عن رغبتها في تبقى الشقة على حالها، فارغة، والكرسيان في وسط الغرفة البيضاء. وأخبرتني بأنها سوف تؤجل سفرها إلى نيم لبعض الأيام، لنبقى على موعد في الغد، ثم قالت لي:

. تصبح على خير.

فقلت لها:

. تصبحين على خير.

آنستني مكالمتها، لكني لمت نفسي على أن تسرعت معها في الكلام وأنا أصرح لها بأن جمالها قد فتنني أو وأنا أسألها هل أحبتني كما أحببتها، فالوقت لم يحن بعد لذلك، ورغم صدق مشاعري فأنا نفسي قد أندم على ما ورطني فيه لساني إن شئت أن أتراجع.

حديث الروح

في صباح الغد، عندما حان الموعد وقفت أنتظرها عند باب العمارة. أقبلت وهي ترتدي بذلة باللونين الأسود والأبيض، واللونان يتموجان، في عنقها ربطة من حرير أحمر، وفي قدميها حذاء أبيض، على طول قامتها فقد زادها كعبه العالي طولا. عندما صافحتني أبقت يدها في يدي. ضوعت المكان رائحة عطرها. دخلنا العمارة وصعدنا الأدراج. سألتني إن كنت أشعر بالغربة وأنا أسكن شقة في عمارة فارغة من السكان، وقبل أن أرد قالت لي:

. سأصبح جارة لك، وسوف أؤنسك.

قلت لها:

. ذلك ما أتمناه.

دخلنا الشقة. اتجهت نحو الغرفة البيضاء وجلست على الكرسي. تنفست هواء قويا. وضعت على المائدة الصغيرة قارورتين من ماء معدني وجلست على الكرسي فأصبحت أقابلها. أخرجت الهاتف، وبدأت أصور. قالت:

"نشأت يتيمة الأم، فقد توفيت والدتي وأنا في السادسة من عمري. رأيتها تنزف، ولم يكن بإمكاني ما أفعله. فارقت الحياة تحت نظري، وأنا أمسك بيدها وأبكي بكاء شديدا. عاد والدي من تجارته ليواجه موت أمي. بعد شهرين تزوج امرأة قست عليَّ، ولم أكن أشكوها أمامه حتى لا أفسد ما

بينهما. تحملت الضرب والشتم والقرص في فخذي. عندما ولدت أخي خليل كلفتني بتربيته. نسيت صورة أمي. صورة واحدة لها كانت على الحائط، ثم نزعتها زوجة أمي، ولا أدري أين هي. لا أتذكر ملامحها وصوتها. حملتني زوجة أبي أشغال البيت وتربية أخي الصغير. كثيرا ما كنت أفكر في أن أهرب من البيت وألجأ إلى بيت عمي، لكني لم أتجرأ على ذلك، خوفا من غضب أبي، كما خشيت أن تعاملني زوجة عمي بمثل ما تعاملني به زوجة أبي. عشت طفولة شقية لم يفارقني خلالها وجه بغير ملامح، هو وجه أمي. كبر خليل، وأصبح أثيرا عند والدي، فقد كنت أراه وهو يفرح به ويلبي كل رغباته، ووجهه يتهلل، بينما كان ينظر إليَّ بنظرات خزر، بعد أن أوغرت زوجته صدره عليّ. كنت أنظر إلى المستقبل على أنه مجهول ينتظرني، ولا خلاص إلا بعد أن أنجح في البكالوريا وأتوظف، لأعتمد على نفسي وأشق طريقي في الحياة. كانت صديقتي منى القباج أفضل رفيقة، فهي جارة وزميلة في الدراسة، حيث كنا ندرس في قسم واحد، وكانت منى عليمة بالحياة الصعبة التي كنت أعيشها، لذلك أخذت تدعوني للمبيت معها في بيتها، فكنا بعد أن ننتهي من مراجعة الدروس نتبادل الحديث ونستمع إلى الأغاني، ونبوح لبعضنا.

عندما وصلت إلى قسم البكالوريا تعرفت على سعيد الوزاني، ابن الجيران، وزميلي في الفصل الدراسي. في البداية، كنا نلتقي في سطح المنزل، فيظل ينظر إلي وأظل أنظر إليه، وإن أشرت له بيدي يشير لي بيده، ثم أصبح يلح على أن يرافقني عند الخروج، ليسير بجانبي. رأيت أعين التلاميذ ترقبنا. رغم أن الكثير من الفتيات كن يرافقن بعض الفتيان، فقد كنت أحس

بالخجل وأنا أسير معه. دعوته لأن نذهب للتجول بين البساتين المحيطة بفاس، فسرنا صامتين. انتظرت أن يعبر عن عواطفه تجاهي، أو أن يمسك بيدي أويضع يده على كتفي فكان لا يفعل. وتمنيت لو نظر إلى الطريق ورآه خاليا فيطبع قبلة على خدي. وانتظرت أن يقول لي: "أحبك"، وأن ينظر إليَّ بوله، وأن أشعر بحرارة الحب تسري في قلبه، لكن شيئا من ذلك لم يحدث. تكررت لقاءاتنا على ذلك النحو،فأخذت أتبرم من الذهاب معه إلى أطراف البساتين أو إلى "حديقة جنان السبيل". بدأ يلاحقني في الطريق، أو ينتظرني عند باب الثانوية. سألني أحد التلاميذ، وهو أيضا ابن الجيران، عما بيني وبين سعيد فأنكرت أن تكون بيني وبينه أية علاقة ما عدا كونه ابن الجيران. طلب مني أن أتركه، لكنه لم يعبر لي عن أنه هو الأنسب لي. حسبته يحسد سعيد على ما يمكن أن يكون بيني وبينه من علاقة. لكن سعيد جعلني أمل الجلوس معه في الحديقة، صامتين، وإن تكلم فهو لا يخبرني عن مشاعره ولا يحرك شيئا من عواطفي. سألته مرة:

ـ ماذا تريد مني؟

بدا عليه الارتباك. وسألته:

ـ هل تحبني؟

احمر وجهه وأطرق برأسه، ولم يرد. عدت أسأله:

ـ قل لي آ سعيد ماذا تريد من علاقتنا؟

قال وهو يعيش حالة من الاضطراب:

ـ لا شيء.

كأن طعنة وجهت إلى قلبي، فقد شعرت أنني أضيع وقتي مع سعيد. تركته، وبقيت أحاول أن أعرف ما به، أهو الخجل الذي يجعل شابا يافعا يضطرب أمام فتاة أقرب إلى سنه، فلا يعرف كيف يعبر لها عن مشاعره وأحاسيسه، أم هو خوف يسكنه ويكبل عواطفه ويمنعه من الانطلاق؟ بعد أن تركته جاء من أخبرني بأنه معشوق لحلاق الحي، وهو يقضي وقته كل مساء جالسا في صالون الحلاقة إلى أن يحين موعد الإغلاق فيغلق الحلاق الصالون من الداخل ويختلي به. صدمة أصابتني. كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن علاقة رجل مع رجل، بينما كنت قد سمعت الكثير عن العلاقات التي تُجريها بعض الفتيات مع بعضهن في الفراش، لكننا أنا ومنى لم نكن نميل إلى ذلك".

نظرت إليَّ نظرة خاصة، فهمت منها أنها تطلب مني التشجيع لكي تستمر. أخذت القارورة ورشفت منها قطرات ثم واصلت:

"في تلك السنة نفسها،تمتنت صداقتي مع منى، وبفضلهاتنفست الصعداء من معاناتي لقهر زوجة أبي. في شهر أبريل من تلك السنة، وقد اقترب امتحان البكالوريا كان لابد لنا من الحصول على بطاقة التعريف الوطنية، فقصدنا إدارة الأمن الوطني. تعرفنا على الضابط جلول مرزاق في مكتبه فرحب بنا وأرسل معنا رجل أمن لأخذ البصمات، وأوصاه بأن يعيدنا إلى مكتبه. حينما عدنا رأيته يركز نظراته على منى، ثم قال لها:

ـ بعد أسبوع تأتين لأخذ البطاقتين.

ثم التفت نحوي وقال لي:

ـ لا داعي لأن تأتي معها، فهي سوف تأتيك ببطاقتك.

استغربت ذلك، لكني لم أجد له أي تفسير. بعد أسبوع طرقت منى باب دارنا وسلمتني البطاقة، وأبلغتني سلام الضابط جلول مرزاق. لو كان قريبا منها لفهمت ذلك، لكنها لم تتعرف عليه إلا وأنا معها، فكيف به يسلمها بطاقتي وكيف بها تثني عليه؟ في الأيام الموالية لاحظت أن منى أصبحت تتغيب عن الحصص الأخيرة التي بقيت لإنهاء المقررات الدراسية، وعندما أزورها في بيتها أجدها ميالة إلى الصمت والذهول وعلامات الحزن ترتسم على وجهها. سألتها عما بها فلم تخبرني بشيء. شعرت أنها تُخفي عني سرا من الأسرار. أجرينا امتحان البكالوريا، وكنا من الراسبين. جلسنا نفكر في مستقبلنا، ونستعد للمراجعة لاجتياز امتحان الدورة الثانية. أخبرتني بأنها قدمت ملف الترشيح لاجتياز مباراة للالتحاق بالأمن الوطني، وأن الضابط جلول مرزاق هو من شجعها على ذلك، وهو يدعوني لأن أترشح للمباراة. قلت أجرب حظي. هيأت الوثائق المطلوبة ثم ذهبنا أنا ومنى إلى ولاية الأمن، فسارت تتقدمني نحو مكتب الضابط. سألتها:

ـ أهو من يستقبل طلبات الترشيح؟

لم ترد عليَّ ودخلت المكتب. نهض من مكانه واتجه نحوها ثم قبلها على خديها وهي مستسلمة. أدهشني ذلك، وحسبت أنهما قد أصبحا خطيبين، وأنها تخفي عني ذلك. رحب بي الضابط، وقال لنا:

ـ ستكونان أجمل شرطيتين في هذا العالم.

أخذ مني الوثائق، وأخبرني بأن الاستدعاء لإجراء المباراة سوف يصلني على عنواني. تركناه وخرجنا من المكتب. سمعته يناديني:

. ربيعة.

التفت نحو المكتب. رأيته يشير لي بيده أن أعود إلى مكتبه. عندما عدت طلب مني أن آتي في الغدلإتمام الترشيح للمباراة، وأن آتي وحدي. خرجت وأنا أشعر بارتباك شديد. سألتني منى عما بي فأخبرتها بأن ملفي يحتاج إلى وثيقة نسيت أن أضمنها في الملف. رأيت نظراتها تتغير. بقيت صامتة لبعض الوقت، ثم قررت أن أصارحها فسألتها:

. ما الذي بينك وبين ذلك الضابط؟

امتقع لونها وقال لي:

. لا شيء. لا شيء.

قلت لها:

. لكنه قبلك على خديك أمامي، وأنتِ لم تبعديهما عنه.

. قالت:

. لقد تجرأ عليّ.

ثم أصابها الذهول، وظهر على ملامحها حزن شديد فقالت لي:

. خذي حذركِ من الضابط. إن دعاكِ لتذهبي معه إلى مكان فلا تستجيبي له.

حسبت أن أمرا قد وقع بينهما، فسألتها:

ـ هل ربطتكِ معه علاقة خارج مكتبه؟

قالت بإنكار شديد:

ـ لا أبدا. إنما أنا أنبهك.

لم أصدق نكرانها، فقد جاءني الظن بأنه قد وعدها بالخطوبة والزواج ثم تخلى عنها.

خلال الليل، وعندما خلدت إلى فراشي، أخذت أفكر في أمري وأمر منى. استبد بي القلق، ولم أعرف هل عليَّ أن أذهب إلى مكتب الضابط دون منى أم لا أذهب. خشيت ألا أذهب فيرمي بملف ترشيحي للمباراة في سلة المهملات، وخشيت إن ذهبت أن أسمع منه ما لا يرضيني فأسمعه ما لا يُرضيه، وفي كلا الحالتين، سوف يكون مصير ملف ترشيحي هو سلة المهملات. قررت ألا أذهب، وأن أنتظر إلى أن يصلني الاستدعاء. في صباح الغد، غيرت قراري. ارتديت ملابسي ثم ذهبت وأنا أتحلى بالشجاعة لمواجهة أي موقف غير عادي. استقبلني الضابط جلول مرزاق بالابتسام، وطلب مني أن أغلق باب المكتب، فأغلقته. انتظرت أن يسأل عن مني لكنه لم يفعل. قال لي بجدية متناهية، أبعدت كل ما كان يقع في ظني:

ـ اخترتك لتقومي بمهمة.

قلت له شيء من الإنكار:

ـ أنا؟

قال:

ـ أنتِ طبعا. سوف أمتحن قدراتك في مهمة تقومين بها، وإن نجحت فيها فسوف تنجحين في المباراة.

طلبت منه مزيدا من الشرح، فقال لي:

"سوف ترتدين ملابس مهلهلة ثم تذهبين إلى عنوان سكن سوف يقدمه لك. تطرقين الباب، وعندما يُفتح لك، سواء فتحه صاحب البيت، وهو رجل لحيان، أصلع، يميل إلى السمرة، أو فتحته زوجته البدينة،لها زبيبة ناتئة على جانب جبينها الأيسر، فعليك أن تسألي إن كان أصحاب البيت يرغبون في خادمة. هنا سوف تواجهين عدة أسئلة عن اسمك وحياتك العائلية ومحل سكناك، وهل سبق لك أن عملت في البيوت، وهل لك معرفة بتربية الأطفال، الخ....وإن طلب منك صاحب البيت بطاقتك الوطنية فقدميها له، وإن سألنك عن الأجر اطلبي قدرا ضئيلا. ينبغي أن تتحلي بالدهاء لإقناع أهل البيت بأنك الخادمة المنشودة".

بعد كل هذه التوضيحات قدم لي هاتفا محمولا، وقبل أن يشرح لي ما سأفعل به، طلب مني أن أعيده إليه فور عدم نجاحي، أما إن قُبلت كخادمة، فعليَّ أن أقضي يوما عاديا في مزاولة أشغال البيت وتربية الصبي، ثم أتصل به بذلك الهاتف فور خروجي من العمل. استقام في جلسته وقال لي:

"قبولهما لك يتوقف على إقناعك، فقد بلغنا أنهما في أشد الحاجة إلى خادمة. سأشرح لك مهمتك. تقضين اليوم الأول في بيت الطاهر بن علي بصورة عادية. تقومين بغسل الأواني وترتيب البيت وطهي الطعام ورعاية

الولد الصغير، فأبواه سوف يغادران البيت للعمل، وعندما يعودان كل شيء على ما يرام، وبهذا ينتهي اليوم الأول من العمل، فتغادرين بيت الطاهر، وتتصلين بي بالهاتف فور خروجك".

ركز نظره عليّ، وسألني:

ـ هل أنت موافقة؟

قلت وأنا أشعر بالارتباك:

ـ موافقة.

قال لي:

ـ هذا هاتف ذكي. افتحيه لكي تتعرفي عليه.

وطلب مني أن أقرب منه، فشرح لي طريقة استعمال الهاتف والتقاط الصور، كما أكد على إخفاءه عن أعين الطاهر وزوجته، حتى لا يتفطنا إلى أن خادمة فقيرة لا يمكنها أن تمتلك هاتفا ذكيا فتحوم من حولي الشكوك.

قال لي:

ـ مثل هذه الملاحظات يجب أن تنتبهي إليها، وأن تتقمصي دور الخادمة بكل حذافيره.

أبديت له موافقتي. أعطاني الرقم الذي سوف أتصل به من خلاله، وعنوان البيت الذي سوف أقصده في صباح الغد.

غادرت مكتبه، وسرت نحو البيت وأنا أفكر في المهمة الصعبة التي عليَّ

أن أقوم بها، وتذكرت أن الضابط جلول قد نبهني إلى أن المهمة ليست خطرة، فإن اكتشف الطاهر أو زوجته أنني عين عليهما فلن يستطيعا أن يفعلا شيئا أكثر من طردي من بيتهما. لم أعرف سبب حزن منى الغامض، وهل قامت بنفس المهمة وفشلت فيها، ثم أخفت عني ذلك. تذكرت نصيحتها لي بألا أذهب إلى أي مكان مع الضابط، وهو لم يطلب مني ذلك. في الصباح غادرت منزلي وقصدت العنوان. طرقت الباب، فتحته المرأة البدينة التي لها زبيبة ناتئة على جانب جبينها الأيسر. تظاهرت أمامها بالذلة والمسكنة، وعرضت عليها العمل كخادمة. تفحصتني بنظراتها ثم سألتني نفس الأسئلة، وعندما أجبت عنها أمرتني بالدخول. ها قد نجحت. قضيت النهار كله في أشغال البيت ورعاية الصبي. بعد خروجي اتصلت بالضابط جلول وأخبرته بأنني قد خرجت للتو من بيت الطاهر. طلب مني أن أعود في الغد للعمل، وأن أستغل فرصة خروج الزوجين لأدخل مكتب الطاهر وأقوم تصوير كل الكتب والوثائق ومحتويات الأدراج، وكل شيء يفيد في معرفة علاقته مع أحد التنظيمات المتطرفة، وأن أبقي أقضي بقية النهار في الأشغال. ذلك ما فعلته، وفي نهاية اليوم أخبرت الضابط بأن الصور في الهاتف. هنأني، وطلب مني في الغد أن أجد الوقت المناسب لأفتح حاسوبه، وأطلع على الملفات، ثم أصورها. أخبرته بأنني لا أتوفر على حاسوب في بيتي وأنني سأحاول فتح حاسوب الطاهر والدخول إلى ملفاته. صعوبة كبيرة وجدتها في ذلك، وإن فتحت الحاسوب ودخلت الملفات فصورتها بكاميرا الهاتف فأنا لم أعرف كيف أغلقه. أخبرت الضابط جلول بكل ذلك، فطلب مني ألا أعود في صباح الغد إلى بيت الطاهر، وأن أحضر إلى ولاية الأمن

لأقدم له الهاتف. في الغد أتيت إلى مكتبه، فطلب مني أن أغلق الباب، وحينما أغلقته قال لي:

ـ مواطنون كثيرون يحسبون أننا نتجسس على حياتهم الخاصة، لكننا في حقيقة الأمر نحمي وطننا من الإرهاب.

فتح الهاتف واطلع على الصور، فهنأني بنجاحي في المهمة، وأكد نجاحي في المباراة، ثم أخبرني بأنني بالفعل، بدأت أزاول عملي في قسم الاستعلامات، وأن المهمة القادمة سوف نقوم بها أنا وهو معا، في شقة أحد العزاب، حيث سنكتشف ما يوجد بها من أسرار تخص إحدى الجماعات المتطرفة. منحني قدرا من المال وقال لي:

ـ منذ اليوم، اعتبري نفسك تعملين تحت إشرافي، وأنا وأنتِ وكل العاملين في الاستعمالات، إنما نحن نخدم وطننا.

سألته:

ـ أهذا هو راتبي الشهري؟

قال:

ـ اعتبري الأمر كذلك.

لا أنكر أنني قد فرحت بذلك المال، كما فرحت بمشروع توظيف في قسم الاستعلامات. لكونه قد طلب مني أن أقوم معه بالكشف عن شقة أحد العزاب، يدعى مراد الأفلج كما قال، فذلك لا يعني ما ذهبت إليه منى من أن ألتقي به خارج الإدارة لممارسة الحب، وما دامت منى كتوما، لم تحك

لي قصتها معها بالتفصيل، فهي لم تصدقني، وما نصيحتها لي سوى مجرد كلام.

تفاءلت بالتوظيف. بحماس التقيت مع الضابط جلول في شارع غينيا، العمارة رقم ٩٢، فقد وجدني في انتظاره، فنظر إلي بحزم وقال لي:

. سوف نباشر اقتحام الشقة. لا تخافي، فمراد الأفلج لا يوجد بها، والمسدس معي.

صعدنا أدراج العمارة. وقف أمام باب شقة، ثم أخرج مسدسه، وأخرج مفتاحا به فتح الباب، ودخل وهو يسدد مسدسه نحو أرجاء الشقة، ثم قال لي:

. ادخلي.

حينما دخلت طلب مني أن أفتش الشقة، وأخذ يطلعني على الطريقة التي أجس بها الوسائد والفرش، وأن أنظر إلى ما تحتها، وأن أشك في كل شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا. فتشت ولم أجد شيئا يثير الانتباه. قال لي:

. علينا أن نجلس وننتظر، ففي هذه الساعة بالذات سوف يعود الشاب صاحب الشقة، وأنا ينوي القبض عليه.

قلت له:

. لكننا لم نجد شيئا بحوزته.

قال:

. في شقة أخرى مماثلة وجدنا عنده هواتف وأسلحة بيضاء وكميات من

العملات الصعبة، وخطابا يبايع فيه أمير الدولة الإسلامية.

جلست وقلبي يدق، فأنا لم أشاهد إلا في الأفلام ضابط الشرطة وهو يلقي القبض على أحد عتاة المجرمين. فتح الثلاجة. أخرج منها قارورة بها عصير برتقال. أفرغ العصير في كأسين، ثم طلب مني أن أعود إلى فحص خزانة الملابس وكل محتويات غرفة النوم. قمت بفحصها ثم عدت لأقول له:

ـ لا شيء.

قدم لي كوب العصير، ورشف من كوب آخر، ثم قال لي:

ـ أنا له بالمرصاد.

أخذ يركز نظره على الباب، وهو يصوب المسدس نحوه. شرب كل ما في كأسه. دعاني إلى أن أشرب العصير فشربته. طلب مني أن أجلس، وألا يُفزعني مشهد إلقاء القبض على الشاب. حال جلوسي شعرت بالارتخاء، ثم أصابني الدوار وشعرت أنني أغيب عن الوعي. عندما فتحت عينيَّ رأيته جالسا. لمستوسطي بأصابعي فوجدت دما. عرفت أنه قداغتصبتيوافتض بكارتي.صفعته. ابتسم وقال إنها المرة الأولى التي تصفعه فيها امرأة. فتح الباب وطلب مني أن نغادر الشقة في الحال. عندما أصبحنا في الشارع، اشتد بي الدوار فكدت أسقط على الأرض. تركني ومشى. بت ليلتي وأنا أفكر في بكارتي التي اغتصبها الضابط جلول مرزاق.

عشت أيام حزن، صارحت منى بما وقع لي، فأخبرتني بأن ما وقع لي هو ما وقع لها، ولامتني لكوني لم أعمل بنصيحتها.

أقبل الصيف. أخبرتني مني بأنها سوف تسافر إلى مراكش لتقيم عند خالتها هناك لبعض الأيام، في محاولةلنسيان ما وقع. رغم اشتداد الحرارة في كل من فاس ومراكش، فقد طلبت منها أن أرافقها، إن كانت خالتها لن تتضجر مني. وافقت، وسافرنا بالقطار. استقبلتنا خالتها بفرح، وتعرفنا على أبنائها. ذهبنا ذات مساء إلى "ساحة جامع الفنا". هناك بدأت قصتي مع ميشيل أرنو.

جلنا أنا ومنى في الساحة، وتفرجنا على القرد والقراد،والحاوي وهو يُرقص ثعبانه ويُقرب لسانه من فمه، وعلى رجال يرتدون ملابس نساء ويرقصون ويغنون. من حلقة لأخرى تنقلنا بين فرجة وأخرى. ابتهجنا وبدأنا ننسى حزننا. عندما وقفنا أمام عربة تبيع أنواع العصير رأيته وهو يقف بجانبي ويتطلع إليَّ بنظراته. حياني بأدب. رددت عليه التحية. شرب كوب العصير بحركات متأنقة. من لباسه وشكله والحقيبة التي تتدلى على كتفه أدركت أنه ليس من أولئك السياح الذين يأتون إلى بلادنا ليعشوا بأرخص تكلفة، يتغذون في مطاعم شعبية ويقيمون في فنادق رخيصة، كان حيويا، في ريعان شبابه، وما دامت لا ترافقه فتاة شقراء مثله فهو على ما يبدو غير مرتبط بامرأة. نظرت إلى الدليل السياسي الذي في يده. نظر إلي وسألني بعض الأسئلة عن معالم مراكش العمرانية والحضارية، فأجبته وأنا محرجة لكوني لم أكن على معرفة كافية. أخبرني بأنه قد أتي إلى مراكش ليكتشف معالمها المعمارية والحضارية، وأنه مهندس معماري يعمل في بلدية باريس. سألته منى إن كان قد سبق له أن زار المغرب، فقال لها:

"جدي كان ضابطا في الجيش الفرنسي، قضى مدة في المغرب، وفي

مدينة أزرو بالذات، وكان ذلك إبان الحماية، وقد ولدت عمة لي في تلك المدينة الأطلسية، أما أنا فقد زرت الدار البيضاء مع والدي ووالدتي وأنا صغير، عندما جئنا إليها على متن باخرة سياحية، وكانت تلك هي المرة التي أزور فيها بلادكم".

أخبرنا بأن اسمه ميشيل، وأخبرناه بأن اسمي ربيعة وأن اسم صديقتي منى.سأل عن معنى اسمينا فقالت له مني:

ـ اسمي يعني ما يتمناه الإنسان، واسم صديقتي قريب من فصل الربيع.

ابتسم وقال وهو ينظر إلي:

ـ هو الفصل الذي تخضر فيه الأرض وتتفتق المشاعر.

بدا متأملا ثم قال:

ـ لا أعرف كيف أشرح لكما اسمي: ميشيل، فنحن المسيحيون تكثر في أسمائنا أسماء القديسين، وأنا اسمي على اسم القديس سان ميشيل.

غادرنا عربة بيع العصير وأخذنا نتجول في الساحة وميشيل يرافقنا. رغم أن نظراته كانت تتوجه نحوي فقد خشيت أن تكون منى هي موضوع اهتمامه. لكي يتضح لي الموقف بدأت أزوغ عنه قليلا وأتركه ليتحدث معها، ثم أجده يتركها ويقترب مني ليخاطبني. أخبرناه بأننا سوف نتناول عشاءنا في أحد المطاعم المتنقلة، التي تحضر في الساحة ليلا، وأن رائحة الشواء التي تحلب ريقنا وافدة من جهة تلك المطاعم. قال لنا:

ـ أنا أتناول الشواء معكما، إذا لم يكن لديكما أي مانع.

قالت له منى:

. لا مانع.

أتينا إلى مطعم يقدم المشويات والبقول والباذنجان والفلافل وجلسنا قبالة شابين يابانيين. اتفقنا ثلاثتنا على أن نتناول من كل ذلك. بعد حين أتى النادل بثلاثة أطباق صغيرة لكل منا، في كل واحد منها بقول وباذنجان وفلافل، وأخبرنا بأن الشواء قادم. بدأنا نتناول السلاطة، وميشيل يتناول بحركات مهذبة تدل على تربيته الأرستقراطية، وكان وهو يخفض نظره على الصحون التي أمامه يرفعه وينظر إلي. حينما أتى الشواء وتناولناه قالت منى:

. أنا سأدفع ثمن هذا العشاء.

قال لها:

. أشكرك. لكني أنا فكرت في دفع ثمنه.

قلت لهما:

. تتجادلان حول الدفع! أنا سأدفع.

ثم ذهبت نحو النادل ودفعت له ثمن ما أكلناه. عندما عدت إليهما قال:

. شكرا. أنا أدعوكما غدا للغذاء معي في أي مطعم تختارانه في مراكش.

شكرنا له دعوته. أخبرنا بأنه يقيم في فندق "أطلس أسني"، ودعانا لأن نتناول طعام الفطور معه في الفندق، وإذا شئنا أن نأتي بلباس السباحة لنقضي بعض الوقت في مسبح الفندق، على أن نتناول طعام الغذاء في أي

مطعم نختاره.

ونحن نخرج من (ساحة جامع الفنا) بدا ميشيل شاردا، ثم اقترب مني وقال لي:

ـ ربيعة، أنا سعيد باللقاء بك. هل يمكن أن تعطيني رقم هاتفك؟

قدمته له. ودعناه وعدنا إلى بيت خالة منى.خلال الليل، أتتني مكالمة منه. حدثني عن سعادته باللقاء بي، وعن سحره بمدينة مراكش. أخبرني بأنه جاء إلى المغرب في رحلة خاصة ليكتشف الفن المعماري في قصور وقلاع الأطلس، كما أنه ينوي السفر إلى فاس ليشاهد فنون المعمار الأندلسي.ذكرني بأنه ينتظرنا أنا ومنى في صباح الغد، في (فندق أطلس أسني)، فأكدت له أننا سوف نحضر.

في الصباح ارتدينا ملابسنا أنا ومنى، ولم تكن معنا ملابس للسباحة، فما كنا نتوقع أن ندخل مسبحا في مراكش. استقبلنا ميشيل عند مدخل الفندق وهو فرح بنا، كان يرتدي سروال بلودجين وقميصا أصفر فوقه سترة بنية اللون، وكان حليق الوجه، معطرا، لكن شيئا من الزرقة يظهر حول حدقتي عينيه. اقترب منه وسألته:

ـ كيف حالك؟

قال لي وملامح حزن ترتسم على محياه.

ـ لم أنم جيدا.

سألته:

ـ وما الذي جعلك لا تنام؟

قال وهو يخفض بصره:

ـ أنت.

قلت له بشيء من الإنكار:

ـ أنا؟

قال:

ـ أنتِ. لقد بت ليلتي مؤرقا وأنا أفكر فيك.

اصطنعت مظهر الجد، فأخذنا إلى مطعم الفندق حيث تناولنا معه طعام الفطور، وحينما اقترح علينا أن نذهب إلى المسبح أخبرته منى بأننا لم نُحضر معنا لباس النوم. غاب عنا قليلا، ثم عاد وهو يحمل لباسين نسائيين للسباحة، فقدمهما لنا وقال:

ـ أرجو أن يعجباكما وأن يكونا على مقاسيكما.

خرجنا من المطعم واتجهنا نحو المسبح. ارتمينا فيه وأخذنا نلهو كأطفال بالتراشق بالماء. سعادة غمرتنا. سبحت بعيدا عن ميشيل ومني فأخذ يسبح باتجاهي ثم قال لي:

ـ أنتِ حمامتي، فلا تطيري عني بعيدا.

ضحكت وقلت له:

ـ إن صنعت لي عشا، فأنا لن أطير.

أخبرني بأن عشي في قلبه، وبيته في باريس هو بيتي. تناولنا طعام الغذاء في مطعم الفندق، ثم خرجنا منه وذهبنا إلى (حدائق ماجوريل). أخذ ميشيل الصف إلى أن اشترى ثلاث تذاكر فدخلنا الحدائق. أذهلتنا أنواع الأشجار والألوان والممرات والخمائل، وقاعة إيف سان لوران. حينما خرجنا من الحديقة وجدنا عند بابها العربات التي تجرها الخيل، فدعاني لأن نركب عربة، جالت بنا شوارع مراكش والحوذي يقرع الجرس بين حين وآخر لينبه السيارات والمارة. كان يجلس بيننا، أنا ومنى، وعلى مرأى منها وضع راحة يده فوق ظاهر يدي. تركته يفعل. قالت له منى:

ـ قضينا يوما سعيدا معك.

قال لها:

ـ حبذا لو كنت أعيش كل العمر سعادة هذا اليوم.

نزلنا من العربة عند باب (فندق أطلس أسني). دعانا لشرب الشاي في حديقة الفندق. ونحن نجالسه في تلك الحديقة أطلعنا من هاتفه المحمول على العديد من الصور التي التقطها للمعالم التاريخية لمدينة مراكش. أخبرته بأن عطلتنا في مراكش قد انقضت وأننا سوف نعود في غد إلى فاس. طلب مني أن نبقى ليوم واحد في مراكش، وبعده يذهب معنا إلى فاس. أخبرته بأن ذلك غير ممكن. طلب مني أن نلتقي في فاس، وأخبرني بأنه قد قام بالحجز في (فندق الجامعي)، وأطلعني على صور للفندق، تظهر فيها قاعات الطعام والغرف والزخارف والحديقة الأندلسية. ودعناه أنا ومنى وعدنا إلى بيت خالتها. خلال الليل كلمني ميشيل وباح لي بما يشعر به تجاهي من مشاعر.

لم أصدق، فما الذي سوف يجعل مهندسا فرنسيا من الطبقة الأرستقراطية يعجب بربيعة الفاشلة في امتحان البكالوريا، التي لا مال لها ولا شهادة عليا تحقق بهما مكانتها لنكون مقبولة عند الفرنسي الأرستقراطي؟ حسبت ميشيل محروما من الحب، ولذلك فهو يبحث عنه بالصدفة، وأينما كان، حتى في "ساحة جامع الفنا" وهو يشرب كوب عصير ويتطلع إلى فتاة تقف بجواره مع صديقتها وهما يشربان العصير. لكني رأيت الصدق في عينيه. لذلك سايرته، فقضينا عدة أيام في فاس عاشتها منى معنا فكانت حينما تبقى وحيدين تقول لي:

. آ ربيعة، لقد واتاك الحظ. ميشيل شاب طيب، يبدو صادقا في حبك، وهو غني، يستطيع أن يوفر لك السعادة.

أمنا ميشيل فقد قال لي:

"أنا أحب المغرب. الصورة التي كان قد رسمها لي والدي عن المغرب، وأنا صغير، نقلها عن والد، فبقيت عالقة في ذهني. عندما تخصصت في الهندسة المعمارية، شغلني فن المعمار في المغرب، وتنوعه بين الطابع الأندلسي الذي يعتمد على الجبس والزليج وأشكال الزخرفة وبين (قصور تافيلالت) و(القلاع الأطلسية). درست كل ذلك من خلال الصور ومعروضات المتاحف، لكن الزيارات التي قمت بها كان لها بالغ الأثر".

خرجنا من (فندق الجامعي) وتجولنا في المدينة العتيقة. كان ميشيل هو من يدلنا على بعض الأماكن التاريخية ويشرح لنا الأدوار الدينية والثقافية والحضارية التي لعبتها تلك الأماكن في حقب من التاريخ. أخجلني أن يكون

فرنسي على معرفة بما لا أعرفه عن مدينتي. كان يلتقط بهاتفه صورا للأسوار والأبواب وسقايات الماء والأسواق والمتاجر والأضرحة. تجولنا في الكثير من المعالم. قصدنا (برج النور)، ثم دخلنا (فندق المرينيين)، ومنه أطللنا على تلك البانوراما التي تطل على فاس وهي بأسرها تبدو فوق راحة اليد، وهناك شربت شايا وشرب هو بعض زجاجات البيرة. توله فيَّ بنظراته، ثم لمس يدي. تركته يلمسها. بدا سعيدا. نزلنا من (باب بوجلود) إلى (مولاي إدريس)، وخلال الطريق كان يتوقف ويقرأ في كتاب بعض المعلومات عن تاريخ المدارس والزوايا والأضرحة ثم يشرح لي ما يقرأ، فأجده يعرف عن فاس ما لم أعرفه عنها، أنا التي ولدت في دار عتيقة في حي عتيق.

خلال تلك الأيام التي قضاها ميشيل في فاس، كنت أرافقه بالنهار، وأتبادل معه الأحاديث في الليل بواسطة الهاتف، إلى أن أخبرني بأنه في صباح الغد سوف يغادر فاسا ، وطلب مني أن أرافقه إلى المطار. في الصباح الذي كان سيغادر فيه أتيت إلى الفندق، فدعاني لشرب العصير، ثم وقفنا أمام حقيبته التي كانت قريبة من الباب. جاءت سيارة تاكسي أقلتنا إلى المطار. دخلت معه إلى أن قدم بطاقة سفره وسلم حقيبته. وهو يهم بالدخول إلى قاعة المغادرة، وقف أمامي ثم أمسك بيدي ونظر إلى عينيَّ. لم أشعر إلا وهو يحضنني. تركته يفعل، ثم قال لي:

ـ ربيعة، لكل بداية نهاية. سعدت بهذه الأيام التي رافقتك فيها، وهي لن تكون إلا بداية لبداية.

أغمض عينيه لكي يحتفظ بصورتي في ذاكرته. ضم صدره إلى صدري ثم

دخل قاعة المغادرة واستدار نحوي ثم أرسل لي إشارة وداع من يده.

عرفت أنه قد تعلق بي. كانت الصدمة التي تلقيتها من الضابط جلول مرزاق قد كبلت عواطفي، لذلك أقول إنني قد احترمت ميشيل، وقدرت لطفه وبراءته، لكن قلبي لم يخفق له كما كان يخفق لسعيد الوزاني، الفتى المخنث. مع نفس التاكسي الذي أخذنا إلى المطار عدت إلى دار الوالد، وأنا أراجع ما وقع بيني وبين ميشيل، سواء في مراكش أو في فاس، فهو لم يسع إلى أن ينال مني شهوة عابرة، ولو عبر عن ذلك لكنت قد رفضت أية علاقة معه، لكنه وبعد أن عاد إلى باريس أخذ يكلمني كل ليلة بالهاتف، ويشكوني ما يشعر به من ألم لكوني بعيدة عنه. كنت أصدق ولا أصدق. وعندما تحدثت مع منى عن الحب الذي يكنه لي ميشيل، وأنني لا أصدق، قالت لي:

ـ عليكِ أن تصدقي. هل تحسبين كل الرجال ذئابا كذلك الضابط؟

قلت لها:

ـ أنا أكاد أذهب مع ميشيل في حبه لي، فأحبه، لكني وأنا أتذكر ما وقع لي مع ذلك الضابط أشعر بأن عواطفي مكبلة، وأن كل الرجال ذئاب.

بعد أن وصل ميشيل إلى باريس لم تنقطع عني مكالماته كل ليلة، وأخذ يشكو من الفراغ الهائل الذي يشعر به في بيته، وهو فراغ لم يكن يشعر به من قبل. أيام ونحن نتحدث بالهاتف ليلا. كنت أجامله بالحديث. لم يخطر على بالي أن تأخذ علاقتنا ذلك المسار الذي أخذته، فقد دعاني لأن أزوره في باريس، وساعدني على الحصول على جواز السفر والتأشيرة. حلمت

بباريس حينما أرسل لي بطاقة الطائرة، ثم وجدت نفسي أذهب نحو مدينة لم أرها إلا من خلال برج إيفل وقوس النصر وحدائق الإليزيه، كما سمعنا عنها أنها مدينة الأنوار والأناقة والعطور. لم أكن قد حددت مدة إقامتي، وما كنت أتصوره هو أنني سوف أحل ضيفة على ميشيل لأسبوع أو أسبوعين ثم أعود إلى المغرب، ولم يخطر على بالي أنني سوف أصبح مهاجرة تعيش انقساما في هويتها داخل مجتمع يختلف عن مجتمعها، وستتكلم لغة غير لغتها وتحتفل بأعياد ليست أعيادها، وأن تحمل هويتين، هويتها المغربية التي حملتها معها والهوية الفرنسية التي اكتسبتها من عيشها في المجتمع الفرنسي. لم أعلم أنني سوف أتحول من مواطنة مغربية إلى مهاجرة في فرنسا، شأني شأن كل المهاجرين المغاربيينوالأفارقة والأتراك، الذين يشكلون نموذجا لمجتمع الهجرة، من جهة فهم يطلبون العمل بعد أن لم يجدون في بلدانهم، ومن جهة أخرى فمنهم من يعيشون التشرد واحتراف السرقة والعيش على الهامش، ويتعرضون للعنصرية.

عندما استقبلني في المطار قبلني على خديّ، وقال لي:

ـ حمامتي، سوف آخذك إلى عشك.

حسبته يمزح، ولم أدر كيف سيكون العش الذي سوف يجمعنا. فرح بي، وبدا عليه أنه يعشقني. زرنا (برج إيفيل) و(حدائق اللكسمبرغ) و(دار الأوبرا)، و(قوس النصر) و(حدائق الإليزيه)، وتعشينا في المطاعم. أغرقني في العطر الباريسي، وغمرني بأكاليل الورد التي كان يهديها لي حتى بدون مناسبة، وكان كل مساء يجلس بالقرب مني ونحن نصغي إلى سيمفونيات

موزارت وبتهوفن وتشايكوفسكي. يحتسي كأسه بهدوء ويعبر لي عن سعادته. لم يطلب مني أن أشاركه الشرب. كنت أضع على نفس المائدة التي يضع عليها كأسه وقارورته وصحونا صغيرة بها جبن ولوز مقلي براد الشاي وكأسا وصحنا به بعض الحلويات. لم يكن يغضبني بشيء، بل كان يقدم لي كل ما يسعدني. مضى أسبوعان على إقامتي معه، فأخبرته بأنني سوف أعود إلى المغرب. بدا حزينا، ثم قال لي:

. هذا ما أتوقعه، وأخافه.

سألته:

. مم تخاف؟

قال:

. من أن ترغبي في عودتك إلى بلدك وتتركيني وحيدا.

بقي صامتا لبعض الوقت، ثم سألني:

. ما الذي سوف تفعلينه بعد عودتك إلى المغرب؟

قلت له:

. بداية السنة الدراسية على وشك، وأنا سوف أكررها في قسم البكالوريا.

قال:

. أليس أفيد أن تقومي بالتسجيل في معهد لدراسة التمثيل السينمائي

هنا في باريس؟

تعللت بأنني لا أتوفر على المصاريف فوعد بدفعها وأخذ يلح في أن أبقى معه، فبقيت لأسبوع ثم عاودني الحنين إلى بلدي بعد أن بدأ السأم يتسرب إلى نفسي. كل المطاعم والمقاهي التي كنا نرتادها لم يعد لها أي إغراء، وحفلات دار الأوبرا أصبحت تجلب لي النوم. شيء واحد كان يشحذ أفكاري ويغذي خيالي هو السينما، فالأفلام التي شاهدناها كانت تملأني بالأحاسيس والصور الجميلة، فكنت أتابع أحداثها بشغف. عندما لاحظ ميشيل ذلك اقترح عليَّ أن ألتحق بأحد المعاهد لأدرس فن التمثيل، لكني أخبرته بأن لا وقت لي لذلك، فأنا أرغب في أن أعود إلى المغرب. سألني:

ـ هل ينقصكِ شيء؟

قلت له:

ـ لا شيء ينقصني، لكني أشعر بالسأم.

بدا عليه الحزن وقال لي:

ـ هل سئمتني؟

قلت له:

ـ مثلك لا يمكن أن تسأمه امرأة، لكني أعيش في الفيلا طوال النهار، فأشعر بالقنوط، ولا أجد شيئا أفعله سوى أن أنتظر عودتك في آخر المساء.

بدا عليه التفكير، ثم أجرى بعد المكالمات بالهاتف، وبعدها اقترح عليَّ

أن تأتي سيارة تاكسي لتأخذني إلى حدائق وشوارع باريس حيث أتفسح ما شئت من الوقت ثم تعيدني إلى الفيلا. أعطاني بعض المال وأخبرني بأن السائق أبراهام سوف يأتي في صباح غد على الساعة العاشرة ليجدني على استعداد للخروج. أخذني أبراهام إلى ساحة لا كونكورد، وهناك فتح المسجل، فسمعت صوتا يقول:

"هذه الساحة صممها المعماري جاك آنج غابرييل سنة ١٧٥٥، وكانت تسمى ميدان لويس الخامس عشر، وقد وجد بها تمثال له. بعد قيام الثورة أصبحت تسمى ميدان الثورة، وفيه أعدملويس السادس عشر. يعتبر ميدان لا كونكورد قلب العاصمة الفرنسية، وفيه يوجد العديد من المتاجر الكبرى التي تغري السياح، والعديد من المطاعم والمقاهي".

رآني لا أهتم، فقال لي أبراهام بلهجته اليهودية:

ـ إذا شئت، فلن أستعمل المسجل مرة أخرى. بعض السياح يستهويهم تاريخ المكان. أما أنا وأنتِ فمكاننا يوجد في مكان آخر.

لم أرد عليه، فقال لي:

ـ سيدتي، إذا أحببتِ، يمكنك أن تنزلي من السيارة، وأن تتجولي في الساحة، ثم تتناولين طعام الغذاء، وتشربين القهوة.

شكرته، وهممت بالنزول. قال لي:

ـ سوف تجدين الساحة غاصة بالسياح من كل دول العالم، وإن خفت من الضياع وسطهم، فها هو رقم هاتفي. أنا سوف أكلمك بين وقت وآخر.

قضيت النهار في (ساحة لاكونكورد). دخلت بعض المتاجر فاشتريت ما راقني، ثم أعادني أبراهام إلى فيلا ميشيل.في اليوم الموالي أخذني أبراهام إلى (حدائق اللكسمبورغ)، وبعده أخذني إلى"ساحة الأوبرا"، وفي اليوم الموالي أخذني إلى (شارع النصر)، ثم أخذني إلى (الشانزلزيه)، و(متحف اللوفر)، وكنت أكتشف باريس بشغف، وأقارن بينها وبين مدينتي فاس فلا أجد سوى الاختلاف.

مكاننا في مكان آخر، ذلك ما قاله أبراهام، فرغم فتنتي بباريس، إلا أنني كنت أجد نفسي في فاس، وأعتبر أن أيام باريس عابرة، وحال عودتي إلى فاس سأعود وأنا مفعمة بالأحاسيس والعواطف التي قدمها لي ميشيل، مثقلة بالهدايا التي كان يقدمها لي أو التي قدم لي المال لأن أشتريها بنفسي.

مضت أيام طويلة وأبراهام يفسحني في باريس، وأنا أشتري من المتاجر كل ما أحب من الملابس والعطور، وأتناول طعام الغذاء في المطاعم. خلال الليل، يعود ميشيل ويطلب مني أن أحدثه عما فعلت وما شاهدت، فكنت أخبره بذلك، لكني في قرارة نفسي كنت أسأل هل سأبقى كل يوم أزور نفس الأماكن، وهل لن يصيبني الضجر وأنا أبتذل أماكن كانت لها فتنتها في أول زيارة، وبدرجة أقل في ثاني زيارة، ومع تكرار الزيارات أصبحت مبتذلة تبعث على الضجر. كنت أسأل نفسي هل سأبقى وأنا أدور في نفس الدائرة، والدوار يعتريني. لذلك أخذت ألح على ميشيل في أن أعود إلى المغرب، فأخذ يبكي، وارتمى في حضني كطفل ثم قال لي:

ـ لا أستطيع العيش بدونك.

أشفقت عليه، ووعدته بأن أبقى لمدة أخرى. زاد شعوري بالسأم وأنا أدور في الدائرة نفسها، فأحل بنفس الأماكن وارى نفس الوجوه. طلبت من أبراهام أن يأخذني إلى بربيس. نظر إليّ من مرآة السيارة وقال لي:

. هل لكِ أحد هناك؟

قلت له:

. سمعت أنه حي يعيش فيه المهاجرون.

قال:

. هناك أسكن. أنا مهاجر، تونسي يهودي.

شغل في جهاز الموسيقى أغنية لصليحة، ثم سألني:

. هل ترغبين يا مدام في التجول في باربيس؟

قلت له:

. أحب أن آكل الكسكس.

هتف:

.كسكس بالعلوش؟ سوف نتناوله أنا وأنت في مطعم لأخ تونسي.

سألته:

. أهو يهودي؟

قال:

ـ بل هو مسلم.

قلت له:

ـ هو مسلم وأنت يهودي، وتسميه أخا؟

قال:

ـ كلنا إخوة في الله.

ثم قال لي:

ـ نحن الآن ندخل الحي الثامن عشر في باريس.

أوقف السيارة على ناصية الشارع، فرأيت وجوها للمهاجرين من مغاربيين وهنود وأفارقة، وأقبل عليّ شاب يبيع خواتم ذهبية وقال لي إنه ذهب رخيص، وفي ذات الآن جاء آخر يعرض علينا سجائر مهربة، فحاول أبراهام أن يصدهما، ثم أشار إلى حقيبة يدي ونبهني إلى إمكانية تعرضي للسرقة في هذا الحي، ثم طمأنني ما دام سوف يبقى بجانبي، وسرنا نحو المطعم. أكلنا الكسكس بالعلوش، وعشت جوا مغاربيا أعادني إلى هويتي. رفض التونسي صاحب المطعم أن يأخذ مني الثمن، واعتبر ذلك ضيافة كما قال. عندما خرجنا من المطعم رآني أبراهام أتطلع إلى هندي يقلب الذرة وهو يشويها على الفحم، فسألني إن كنت أرغب في تناولها، ولما وافقت بحركة من رأسي اشترى لنا كوزين، فأخذت أقرض من الكوز بأسناني الأمامية وأنا في غاية الفرح.

بعد عودتي إلى فيلا ميشيل أخبرته بأن أبراهام قد أخذني إلى باربيس، فرأيت سحنته تتغير، ثم سألني:

ـ إن كانت زيارتك لباربيس قد أفرحتك، فهل سوف يأخذك إليه أبراهام غدا؟

قلت له:

ـ أتمنى ذلك، فبعد أن تناولت الكسكس بالعلوش بقي في نفسي أن أتناول سندويتش التن والهريسة ، وأن أسمع في سيارة أبراهام أغاني الشيخ العفريت والهادي الجويني.

قال لي:

ـ لقد أفسدك أبراهام.

قلت له:

"أنا من طلبت منه أن يأخذني إلى باربيس، وهذا ليس فسادا، فقد جاءني الحنين لأن أقترب من عالم المهاجرين، فشعرت بالمتعة والفرح وأنا أتناول طعام الغذاء وسطهم. أما الأماكن الأرستقراطية التي تأخذني إليها فقد استهلكتها وأصبحت تشعرني بغربتي عنها"

دخلنا في جدال احتدت معه أعصابي، وكانت هي المرة الأولى التي وقع فيها الخصام بيننا، فبت بعيدا عنه، وفي الصباح جاء يصالحني. أحسست أن الجذوة قد انطفأت وأنني لا أستطيع أن أبقى لمدة أطول مع ميشيل، ورغم أنه كان يجعلني أعيش في جنته، فقد بدأت أتهيأ للخروج من تلك الجنة،

وطلبت منه أن يشتري لي بطاقة السفر، فبدا غاضبا، ثم قال لي:

ـ أنا لا أستطيع أن أتخلى عنك.

قضيت ثلاثة أو أربعة أيام وأنا أرفض الخروج مع أبراهام، إلى أن أخذ ميشيل يلح علي في ذلك، فطلبت من أبراهام أن يأخذني إلى (شارع بيغال). قبل أن يتركني أوصاني بالحذر، فالشارع بؤرة لتجارة المخدرات والدعارة والجرائم.هناك شاهدت (محلات السيكس شوب) وبيع مقتنيات الجنس وأشرطته، ومررت بجوار كباريه العروض (الطاحونة الحمراء). وأنا أسير وأطلع إلى معالم الشارع اقترب مني شاب أسمر، عريض الجبهة، واسع العينين، فالتقت نظراتنا وقال لي:

ـ مرحبا بك. أنا مراد بوراس. جزائرية؟

قلت له:

ـ مغربية.

قال:

ـ أنا جزائري.

رافقني وأنا أسير، وأخذ يتحدث عن الغربة، ثم دعاني إلى لأشرب معه الشاي في المقهى، وهناك بدأت العلاقة بيني وبينه، فقد سحرني بحديثه، وعرفني على شبان جزائريين غنوا أغان للشيخ العنقة وضحكوا من الأعماق. حاول مراد أن يتعرف عليّ فأخبرته بكل شيء عن حياتي مع ميشيل. نظر إليَّ أحد الشبان وقال:

ـ أعطني عنوان الفيلا، ومعلومات عن ميشيل، ونحن نتكلف بالباقي.

غمره مراد وقال لي:

ـ لا تأخذي على كلامه.

مررنا ببيوت الدعارة فرأيت من أبوابها بنات شبه عاريات بالغن في المساحيق وأحمر الشفاه وهن يعرضن أجسادهن. عندما كلمني أبراهام بالهاتف أراد مراد أن يعرف من هو، فأخبرته بأنه سائق تاكسي تونسي. دعاني لأن أبقى معه لبعض الوقت كي أرافقه إلى مسكنه فلم أطاوعه. حينما أتيت إلى المكان الذي حدده لي أبراهام لم يفارقني. رآه أبراهام، وحينما ركبت السيارة لم يسألني عمن يكون ذلك الشخص الذي رآه يرافقني، كما لم يسألني ميشيل بعد أن عدت إلى الفيلا أين ذهبت، وأنا لم أخبره بأنني زرت شارع بيغال.

بعد ثلاثة أيام أعادني أبراهام إلى هناك، وفي المقهى التقيت بمراد. أقبل عليَّ وقبلني على خديَّ، وطلب لي الشاي. طوال جلوسي معه وهو يسأل عن الفيلا وما يوجد فيها من تحف، وهل لاحظت أين توجد الخزنة، وهل اطلعت على رقمها السري. تجاهلت أسئلته، فصرح لي بأنه يرغب في أن أساعده على سرقة الفيلا بمساعدة رفيقين له يختصان في تسلق الأسوار والاقتحام وفض الخزنات دونما حاجة إلى أرقامها السرية. ضحك وقال لي إنه يعشقني، وما سيقوم به هو من أجلي، فحالما نقوم بسرقة الفيلا نبيع ما سرقناه ويصبح لدينا مال كثير به نغادر فرنسا للعيش في بلجيكا أو هولندا. أدرك أنني مستاءة من قوله ذاك.أخذ يضحك، ويقترب مني ليحوطني بذراعه

فأخذت أبتعد عنه، ثم مد يده إلى حقيبة يدي وفتحها عنوة، وأخذ حافظة النقود ففتحها واستولى على ما فيها ثم قال لي إن ذلك المال سيكون دينا لي عليه، فهو في حاجة إليه. أخذت منه حقيبة يدي ونهضت من المقهى. نهض وسار معي. أخرجت من الحقيبة هاتفي المحمول وكلمت أبراهام. في لحظة توقفت السيارة أمامي. رأيت أبراهام ينظر إلى مراد. ركبت السيارة وقررت أن يكون ذلك هو آخر لقاء بيني وبينه، وأن تكون آخر زيارة لحي بيغال.

أصبح ميشيل متوتر الأعصاب، لا ينام إلا قبيل الفجر وهو يحتسي كأسا بعد أخرى وينظر إلى الفراغ، وكلما سألته عما به لا يرد. ازرقت حدقتا عينيه، وبُحَّ صوته، وكلما اقتربت منه أجده يجافيني ولا يطيق النظر إليَّ أو سماع صوتي. أول الأمر لم أعرف ما به، ثم باغتني بالسؤال:

ـ ما الذي تفعلينه في شارع بيغال؟

أجبته:

ـ أهذا ما يقلقك في هذه الأيام؟ كل ما في الأمر أنني أردت أن أتعرف عليه.

قال:

ـ قولي تتعرفين على الجزائري مراد.

أدركت أنه على علم بلقائي معه في المقهى. كأني قد تلقيت صفعة. كاد سقف الفيلا يتهاوى فوق رأسي. عرفت أن الإنكار لن يفيد في شيء. طفرت الدموع من عيني. أخرج العديد من الصور ورمى بها أمامي. صورة لنا

وأنا ومراد يظهر فيها الشبان الجزائريون وهم يغنون أغاني الشيخ العنقة، وأخرى لمراد وهو يحوطني بذراعه ويقبل خدي، وأخرى وهو يفتح حقيبة يدي ويخرج أوراق المال من كيس النقود، وصور أخرى لم أقبل أن أستمر في رؤيتها فدفعتها باتجاهه. سألني:

. هل ضاجعك مراد؟

قلت له:

. لم ألتق معه في خلوة وإنما في مقهى.

بدا غير مصدق وقال لي:

"كفاك من دموع التماسيح. أنا رفعت قدرك، وجعلتك تعيشين معي في أسمى درجات الحب. حاولت أن أهبكِ السعادة لكن سعادتك لا توجد إلا في الحضيض. ما دام الليل متأخرا، ستبيتين ليلتك في بيت في يوجد في طرف الحديقة، وفي صباح الغد تأخذين كل الملابس والهدايا التي اشتريتها لك وتغادرين الفيلا قبل موعد خروجي إلى عملي، ثم لا تعودي إليها أبدا. أنتِ ساقطة، وأنا لا أحب الساقطات".

لم أدافع عن نفسي، ولم أتوسل إليه ليصفح عني، فقد أيقنت أنني مطرودة من جنته. أردت أن أغادر الفيلا في الحال، فمنعني من ذلك، وقادني إلى البيت الذي يوجد في طرف الحديقة. لم يكن به فراش أو غطاء، وكان برد باريس قارصا في تلك الليلة. بت أقشعر من البرد. مع ظهور أول ضوء للصباح، وأنا أهم بمغادرة الفيلا، وجدته يقف أمامي. بدا عليه أنه هو الآخر لم ينم. في تلك اللحظة، كدت أرتمي عليه وأعانقه وأطلب منه أن

يسامحني، لكن ما رأيته في عينيه من إصرار على أن أخرج من حياته، وما شعرت به من كرامة، منعاني من ذلك.طلب مني أن آخذكل الملابس والأحذيةوالأكسسوارات، والعطور وأدوات الزينة، والهدايا التي كان قد اشتراها لي وأن أغادر الفيلا في الحال. قلت له:

ـ أنت أخرجتني من الفيلا ليلا، وأنا لن أدخلها مرة أخرى.

قال لي:

ـ إذا لم تأخذي أشياءك فسوف أرميها في المزبلة.

قلت له:

ـ ارمها.

غادرت الفيلا. تبعني. رماني بجواز سفري وبحقيبتي اليدوية وبعض النقود، ثم قال لي:

ـ لا أحب أن أراكِ بعد اليوم.

انحنيت على الأرض فالتقطت الحقيبة اليدوية وجواز السفر، وترددت في أن ألتقط الأوراق المالية، وحينما رفعت بصري نحوه، شجعني على أخذها بنظراته فأخذتها وأنا أشعر بالمهانة.

في ذلك الصباح الباكر الذي غادرت فيه فيلا ميشيل، وقفت على ناصية الشارع وأنا محطمة، أشعر بأن لا أحد لي في باريس ألجأ إليه.فكرت في أن آخذ المواصلات إلى بيغال وألتقي بمراد، ثم ساورتني المخاوف من أن يعتقد أنني قد سرقت من فيلا ميشيل الأموال والجواهر والحلي والأشياء

النفيسة وأنني أخفيها في مكان عليه أن يتعقبني لكي يصل إليه. ثم فكرت في شيء آخر، هو أنه إن لم يجد معي شيئا فسوف يدفع بي لأن أعمل في أحد المواخير وهو يتقاضى الثمن.

نظرت إلى عنقي فوجدت به سلسلة ذهبية، وإلى أصابعي فرأيت بها عدة خواتم. أحصيت المال الذي رمى به ميشيل في وجهي فوجدته كثيرا. فتشت حقيبة يدي وفيها وجدت بعض المال. ما بقي في نفسي، وأشعرني بالندم، هو أن ميشيل، حتى بعد أن تأكد من أنني كنت أخونه مع صعلوك جزائري، فقد منحني من المال ما أستعيد به لكي أبدأ حياتي من جديد. تأكدت من أنه إنسان نبيل، وأنني قد ارتكبت غلطة العمر.

سرت حتى وصلت إلى المحطة الطرقية دون غاية أو هدف. قلت إنني في المحطة سوف أعرف طريقي. جلست مكسورة الخاطر، أفكر في شراء تذكرة للسفر لكني لا أعرف إلى أين. صدفة، اقتربت مني امرأة مغربية وسألتني عن الكشك الذي تباع فيه التذاكر لمدينة نيم. سألت:

ـ نيم؟

قالت:

ـ أنا ذاهبة إلى نيم، وأنتِ إلى أين سوف تذهبين؟

قلت لها:

ـ أنا أيضا سأذهب إلى نيم.

اشترينا تذكرتين. سارت بنا الحافلة، وفي الطريق تبادلت الحديث مع

البتول، فأخبرتني بأنها من تطوان، وأنها تعمل منظفة في أحد المطاعم في نيم. عندما وصلنا إلى نيم سألتني المرأة إن كنت أقصد عنوانا معينا فأخبرتها بأن لا أحد لي في نيم، وأنني أرغب في البحث عن عمل. استضافتني البتول في بيتها لثلاثة أيام، ثم عرفتني على مدام أنيط، التي قبلت أن أعمل عندها في المطعم منظفة بالتناوب مع منظفة أخرى هي وهيبة التونسية، وأخبرتني بأن مواعيد العمل بالنسبة للواحدة منا تبدأ في الثامنة صباحا وإلى الرابعة بعد الزوال، ليبدأ عمل الأخرى من الرابعة بعد الزوال إلى منتصف الليل. شرحت لي أن التناوب يكون يوما بيوم، وأن العمل هو قيام من تعمل في الصباح بتنظيف الواجهة الزجاجية والأرض والموائد والكراسي، وحينما يبدأ موعد استقبال الزبائن تلتحق بالمطبخ لغسل الصحون والكؤوس والأكواب والملاعقثم تجففها وترتبها في مكانها، أما العمل في المساء والليل فيكون المطبخ، وحددت لي الأجر في ١٢٠٠ أورو في الشهر، وقالت إنها تأذن لي ببعض العطل التي أزور فيها المغرب مقابل خصم أيامها من أجرتي، وأن يكون ذلك بتنسيق مع وهيبة، التي سوف تقوم بالعمل طوال الليل والنهار، وستنال أجرتها وأجرتي لأيام التي أغيب فيها، ثم تمنت أن أكون عند حسن الظن.

شكرت البتول، وبقيت في ضيافتها إلى أن قدمت لي مدام أنيط أجرة عشرة أيام فاستطعت أن أكتري شقة صغيرة فرشت صالونها بفرش رخيصة كان أصحابها قد استغنوا عنها،وبدأت حياة جديدة في العمل، تعرفت خلالها على وهيبة التونسية، التي أخذت أتناوب معها على العمل، وعلى الطباخ شعبان ومساعده عبد القادر، وباقي من يعملون معي.

أتتني البتول ذات يوم، وحدثتني عن حاجة المرأة التي تكون مثلي وحيدة إلى زوج يؤنسها ويحميها وتنجب منه الأولاد. لم أعرف ما تقصد، لكنها أوضحت لي أن لها أخا يعمل في البناء، وقد رآني وأعجب بي، وهو يطلبني بالحلال. طلبت مني أن أتعرف عليه، وأخذت تمدح أخلاقه وخصاله، ثم قالت إن الفقر ليس عيبا، ومن يكون فقيرا اليوم قد يصبح غنيا غدا. فهمت أنها سوف تزج بي في الحياة مع زوج فقير، وأن عليَّ أن أنتظر منه بعد طول العمر أن يصبح غنيا. كان أخو البتول هو عبد الرحمن البيضاوي، العامل في البناء، الذي تزوجته وأسكنته معي، ثم لم يمض أكثر من شهر على زواجنا حتى اختفى، وترك ملابسه وأوراق العمل في الشقة، ما يعني أنه لم يكن يُبَيِّتُ للهروب. أخبرتني البتول بأن أخاها قد دخل في خصومة مع عامل آخر في البناء، فطعنه بسكين في كليته اليمنى، وأن تلك الخصومة جاءت نتيجة تراكم أحقاد وحزازات، لذلك فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى هولندا خوفا من ملاحقة البوليس الفرنسي، وأنه سوف يتصل بي ويبعث لي بعنوانه الجديد لألتحق به. قلت لها:

ـ لن ألتحق به.

ورجوتها ألا تعتبر ذلك سوءا مني، وأن تبقى صداقتنا على حالها.

كان عبد الرحمن يعرف هاتف المطعم، فلم يتصل، ولم يحدثني بنفسه عما جرى له، ولم يحفظ ما كان بيننا من مودة، وحتى لو كان في بطني حمل منه لكان قد أنكره وتركني أتحمل تربيته ونفقاته وحدي.

لم أشأ أن أفسد العلاقة مع البتول، فهي التي استضافتني وعرفتني على

مدام أنيط، ولم أرد أن أحاسبها بذنب ارتكبه أخوها في حقي وهو يتنكر لزواجنا ويغيب دون أن يتصل بي. أنا سيئة الحظ، فبعد أن كان ميشيل يشجعني على الالتحاق بمعهد لدراسة التمثيل السينمائي أصبحت منظفة في مطعم، وبعد أن كنت أعيش معه مدللة وكأني أميرة، أحظى بالحب والعناية والكرم، تزوجت عامل بناء لم يثبت معي في الزواج فهرب وتركني. أصابني الندم، وأدركت أنني جنيت على نفسي، فما كان ينقصني شيء من حب ميشيل وعنايته، لكني جنيت على نفسي.

جاء يوم تطلعت فيه مدام أنيط إلى وجهي وقالت لي:

ـ يبدو أنكِ تتأرقين. وجهك أصبح أصفر، والزرقة حول حدقتيك.

قلت لها:

ـ لست سعيدة في حياتي.

قالت لي:

ـ أيها الفتاة الجميلة، إنك في حاجة إلى رجل يحبك، ولو وجدته لعاد وجهك إلى التورد كما كان.

أخذت تعطف عليّ بعد أن كسبت ثقتها واحترامها. حينما تعددت أمراضها، من سكري والتهاب في المفاصل وانسداد في الشرايين، أخذت تتخلف بين يوم وآخر عن الحضور إلى المطعم، فأخذت أعودها في بيتها كلما تخلفت، فأجدها شاكية باكية، تشكو من أولادها الذين انشغلوا بأولادهم ونسوها، وتبكي موت زوجها الذي كان يعشقها كما قالت. في

إحدى الزيارات أطلعتني على صورهما وهما في أيام الشباب، وهي تلعب التنس، وتشارك في أعياد الميلاد، وتحضن أولادها، وتسبح في البحر، وتعزف على القيثارة، وتقف في المطعم أمام ضيوف هي التي تتصدرهم وأمامهم سمك كبير على المائدة. في كل تلك الصور تأملت وجهها فعجبت له كيف تحول من النضارة إلى الذبول، ولعينيها كيف فقدا بريقهما، ولقامتها كيف انحنت، وعجبت لكون مدام أنيط، العجوز الماثلة أمامي وهي ذاوية كغصن شجرة ذابل، وكيف كانت فاتنة وهي في ريعان شبابها. علمت أن هذا هو حال كل امرأة جميلة، فهي حينما يتقدم بها العمر تفقد سحر جمالها، وإن تقدمت بها السنون أكثر فأكثر فهي تتحول إلى فزاعة ترعب الأطفال، بينما كانت في هي نفسها في ريعان شبابها تملأ أعين الناظرين بالحسن والجمال.

أبديت لها إعجابي بالصور، ثم قدمت لها الطعام والدواء ودعوت لها بالشفاء، وغادرت بيتها. في زيارة أخرى نظفت فراشها وغرفة نومها ثم أخذتها إلى الحمام فغسلت جسدها بالصابون والماء الدفيء ثم نشفت جسدها بالمناشف وألبستها ملابس نظيفة.

في المطعم، كانت تعتمد على الطاهي شعبان ومساعده عبد القادر، العاملين في المطبخ، يحضران الطلبات للزبائن، وهي التي يأتي بها إليهما النادلان الجزائري ميمون والكاميروني مامادو، وكنت أنا أتسوق للمطعم حاجياته، لكنها بعد أن تفاقم مرضها ولم تعد تقدر على الجلوس أمام آلة الحساب أتت بفرانسوا ليجلس في مكانها، وبقيت فاطمة المغربية ووهيبة التونسية تتناوبان على تنظيف المطعم وغسل الأكواب والصحون. أخذت أحصل من شعبان على لائحة الحاجيات من أسماك وفواكه بحرية ولحوم

ودجاج وغيرها، وكنت أذهب إلى السوق زيادة على ذلك، فقد كلفتني مدام أنيط بدفع أجور العاملين في آخر كل شهر، فأخذت أقدم لهم أجورهم من خلال كشوف بأسمائهم يوقعون على جانب منها بالاستلام.

رضيت مدام أنيط عن أدائي كمسيرة للمطعم في أثناء غيابها، فأخذت تغيب كثيرا. خلال مرضها ولم أتخل يوما واحدا عن زيارتها، فكنت أؤنسها وأعطيها الأمل في الحياة، وفي آخر كل شهر كنت أقدم لها الحساب فكانت تتابعه معي وتدقق في التفاصيل، فلم تجد في في شهر من تلك الشهور التي تحملت فيها مسؤولية تسيير المطعم هنة من الهنات أو خطأ يسرب الشك إلى صدق عملي.

ذات ليلة، وبعد أن أطعمتها وقدمت لها الدواء، وأخذت أمسد كتفيها، سألتني عن سيارة المطعم، فأخبرتها بأنها واقفة على الناصية. قالت لي:

ـ ولماذا لا تستعملينها؟

أخبرتها بأنني لا أتوفر على رخصة السياقة. شجعتني على تعلم السياقة واجتياز الامتحان للحصول على الرخصة، وقالت لي:

ـ سيارة المطعم سوف تساعدك للتنقل وجلب الحاجيات.

تدربت على السياقة وحصلت على الرخصة، وأصبحت أستعمل سيارة المطعم في نقل الحاجيات من المطعم إليه. لاحظ كل العاملين أنني أصبحت المسؤولة عن المطعم، فعلمتهم الاحترام والعمل الجاد، والوفاء لمدام أنيط. لفت نظري الطباخ شعبان القسنطيني الذي كنت أعمل بجانبه وأنا أغسل الصحون والأكواب، ثم أصبحت أنا من تزوده بحاجيات المطبخ؛ فقد أخذ

ينظر إليَّ بنظرات خاصة، أشعر من خلالها بأنه يبث لي رسائل لا علاقة لها بالعمل. عندما تكرر ذلك عدة مرات فكرت في الأمر ورأيت أن أواجهه، فسألته:

ـ السي شعبان ما بك؟

بدا حييا، فقد خفض نظره وقال لي:

ـ لا شيء.

قلت له:

ـ أراك تنظر إليَّ بنظرات لم أعهدها منك.

قال:

ـ آ لالة ربيعة، هي مجرد نظرات.

تركته لحاله، وأخذت أسترجع أحاديثه معي عندما كنت أغسل الأطباق والصحون وهو يحدثني عن بلده الذي كان يسميه بلد المليون شهيد، وبمدينته قسنطينة التي كان يسميها مدينة القناطر، وأنه كما كان يقول لا يشرب الخمر وإن كان يستعملها في إعداد بعض الأطعمة.

تكررت نظراته الغريبة، فعدت أساله عما به، فقال لي:

"آ لالة ربيعة أنا جمعت شيئا من المال من عملي في هذا المطعم وأفكر في الزواج. في الحقيقة كنت أرغب في أن أتزوج جزائرية، ابنة بلدي، لكن وأنت مغربية، فلا فرق، بلدنا واحد، لهذا فكرت فيك، وظننت أنني إن قبلت مني الزواج فسوف نجمع ما عندنا أنا وأنت ونذهب للعيش في بلدنا،

سواء في المغرب أو في الجزائر، فهو بلد واحد، وهناك نعمل أنا وأنتِ في مطعم أو في تجارة لنكسب قوتنا ونلد أبناءنا لينشئوا على التكلم بلغتنا والتدين بديننا والعيش على ما تربينا وعشنا عليه".

أخبرته بأن زوجي الهارب لم يطلقني، وأنني ما أزال في عصمته، ثم أنني لا أرغب في الزواج.

قال لي:

ـ آ مدام ربيعة، لماذا لا ترغبين في الزواج؟

قلت له:

ـ يا شعبان، أنا أخبرتك بأنني لا أرغب في الزواج، بل أرغب في حريتي.

قال لي ساخرا:

ـ حرية المرأة! المرأة إذا لم تحمها رجل هو زوجها فسوف تأكلها الذئاب.

طلبت منه أن يترك مثل هذا الحديث وأن نتعامل في حدود العمل الذي يجمعنا. مرت الأيام، فرأيت شعبان يرتدي جبة ويرسل لحية طويلة وقد قص شاربه ووضع على رأسه طاقية، وكلما وجد متسعا من الوقت في عمله في المطبخ يضع سجادة على الأرض ويصلي ثم يُكثر من الدعاء.

جمعت شيئا من المال من أجرتي الشهرية، وأصبح لديَّ طموح في أن أمتلك سيارة أعود بها إلى المغرب لأظهر بها أمام الناس بمظهر حسن، فاشتريت تلك سيارةرونوإسباس مرقمة بفرنسا. بقيت أنتظر أن أجد الفرصة لتوفير مخزون كاف من حاجيات المطعم، ثم طلبت من مدام أنيط عطلة

أسبوع أزور فيها المغرب، فأذنت لي عندما أتيت ومعي وهيبة التونسية لتقدم لها الطعام والدواء.

عطلة قصيرة لم تدم أكثر من خمسة أيام في المغرب، خضت فيها مغامرة السياقة على الطريق، عائدة إلى المغرب، وإلى فاس.لم أفكر في أن أدخل بيت والدي لكوني لم أرغب في أن أرى وجه زوجته. حينما وجدت عمي في ضيعته التي توجد في (واد أمليل)، أقمت في بيت ابنة خالتي لالة زينب وزوجها السي الطايع. وأخذتها معي إلى (حامة مولاي يعقوب) و(حامة سيدي احرازم)، ثم قضينا يوما كاملا في (إيموزار)، تكلمت بالهاتف مع ابنة عمي عائشة فعبرت لي عن شوقها لرؤيتي ودعتني إلى أن ألتحق بها في ضيعة توجد عند مدخل مدينة (واد أمليل). غادرت فاسا بالسيارة، ولما دخلت المدينةكان البرد قارصا، فاشتد بي الجوع، وعندما شممت رائحة الشواء تفوح من مطعم شعبي دخلته، وكان منصور الهداف هو من قدم الشواء وبراد الشاي.وأنا أتناول الطعام لاحظت أنه لا يكف عن النظر إليّ، وبين حين وآخر يخرج إلى ناصية الطريق ثم يتطلع إلى السيارة ويمعن النظر في ترقيمها في فرنسا، ثم جاء يسألني:

ـ هل تقيمين في فرنسا؟

فأكدت له ذلك، وأطلعته على جواز سفري. وسألني:

ـ ماذا تعملين هناك؟

أخبرته بأنني أسير مطعما يطل على البحر في مدينة نيم، وقدمت لهبطاقة زيارة مكتوبة بالفرنسية، تحمل اسمي وصفتي كمسيرة لمطعم، وعنوانه،

وهي البطاقة التي كنت أستعملها في التعامل مع من كنت أتعامل معهم. تطلع إلى البطاقة، وسألني:

. هل يمكن أن أحتفظ بها؟

سألته:

. لأي غرض؟

قال:

. حتى أجد من يقرأ لي ما فيها من معلومات.

ثم أخفى البطاقة في جيبه واتجه نحو شخص كان يقف أمام المشواة فأطلعه عليها وأخذا ينظران إلى ما فيها ويتطلعان إلي، ثم وقفا معا، عند باب المطعم، يراقبان لوحة ترقيم السيارة. بقي منصور يحوم حولي. سألته إن كان يعرف ضيعة السي بوبكر السعيدي فأكد لي ذلك. أخبرته بأنه عمي. حدثني عن ترشيحه للبرلمان وأن من كانوا يشاركون معه في الحملة الانتخابية كانت تقام لهم الولائم في هذا المطعم، ثم عاد يتطلع من وراء زجاج المطعم إلى السيارة الواقفة عند الناصية، فعرفت أنه يفكر في الهجرة إلى فرنسا. انحنى عليَّ وقال لي:

. أنا مجرد نادل في هذا المطعم. أتقاضى أجرة قليلة لا تؤهلني للزواج وإعالة أسرة. أنا أرغب في الهجرة إلى أوربا، وليتك تساعديني على الحصول على عقدة عمل.

نظرت حولي فوجت المطعم خاليا، ما عدا من الشَّوَّاء الذي كان يتطلع إلينا ويسترق السمع. قلت له:

ـ ذلك يتطلب مالا كثيرا.

قال:

ـ أنا أتوفر على جواز السفر، وأخي يستطيع أن يقرضني المال.

اقترح عليَّ أن أرافقه إلى بيت أسرته القريب من المطعم. عند الباب، دخل الدار وتركني أنتظر إلى أن خرجت والدته وأخذت ترحب بي ثم أدخلتني إلى الدار، وعندما حضر أخوه عبد العزيز أخبرت الجميع بأن ثمن عقد العمل يتراوح بين ستين وسبعين ألف درهم. بدا عليهم الوجوم فقلت لهم:

ـ إن كان الثمن غاليا فما عليكم من حرج.

هممت بأن أغادر الدار، لكن أمه تشبثت بي وأصرت على أن أبيت عندهم، لكني أخبرت الجميع بأنني كنت في الطريق زيارة عمي في ضيعته، وسأبيت في الضيعة على أن أعود إليهم في صباح الغد.

قضيت الليلة مع فدوي ابنة عمي نتبادل الأحاديث، وفي الصباح قصدت المطعم فوجت منصور ينتظرني. أخذني إلى الدار، وهناك وجدت أخاه عبد العزيز فسلمني مبلغ ستين ألف درهم وجواز منصور وبطاقته الوطنية، ثم ارتمت عليَّ أم منصور وعانقتني وأخذت تذرف الدموع وتوصيني به، أما هو فقد بدا وديعا كحمل، مما جعلني أخبر أمه بأنني سوف أُسكنه

معي ريثما يحصل على سكن، وأنني سوف أُشغله في المطعم، وسأكون ربة عمله.

أعد منصور نفسه للسفر، وودع أمه وأخاه، ثم خرجنا إلى السيارة فركب بجواري وانطلقت نحو سبتة. خلال الطريق كنت شديدة التوتر، لذلك لم أشترك معه في الكلام. فكرت في أن عبوره إذا ما تم بدون مشاكل فسوف أقترح على مدام أنيط أن تُشغله في المطعم، وبذلك أكون قد وفيت بالتزامي، فعبرت به نحو أوربا، ومكنته من العمل، لكني أصبحت شديدة الخوف عندما وصلنا إلى نقطة الحدود. طلبت من منصور أن يختبئ في الدرج الخلفي للسيارة، فبدا متبرما، لكني أقنعته بأن ذلك لن يتطلب سوى وقت قصير نجتاز فيه الجمارك ثم يعود للجلوس بجواري، فاستسلم، واختبأ في الدرج الخلفي. بدأ قلبي يدق بسرعة. تشجعت، وعندما وقفت أمام الجمركي قدمت له الأوراق وبداخلها خمسة آلاف درهم. تجاهلها. فتح المخبأ الخلفي، وعندما رأى منصور مختبئا فيه أغلقه بسرعة وطلب مني أن أمر. توقفت عند الجمارك الإسبانية. ختم الجمركي على جواز سفري وأشار إليَّ بأن أمر. دخلنا سبتة. عاد منصور ليجلس بجواري. بدا فرحا، بينما بقيت متوترة الأعصاب، أنتظر ما يمكن أن تسفر عنه نقطة المراقبة في الميناء. وضعت خمسمائة أورو داخل جواز سفر منصور، واشتريت تذكرتين للعبور في الباخرة إلى الجزيرة الخضراء. عند نقطة المراقبة، سلمت للجمركي جوازي سفرنا والتذكرتين، فتطلع إلى منصور وإلى أوراق الأورو ثم سحبها ووضعها في جيبه وأفسح لنا لندخل الباخرة. طوال الرحلة البحرية بقيت لا أصدق أن كل شيء قد تم بخير، بفضل الرشوة التي قدمتها للجمركي المغربي

ولرجل البوليس الإسباني. عرفت أن الرشوة تفتح الطرق في كل مكان وأينما كان الإنسان. عندما خرجت بالسيارة من الباخرة، أخذنا الطريق، إلى أن توقفت عند محطة للاستراحة، فتناولنا طعاما، وتلفن منصور لأخيه عبد العزيز فأخبره بأننا في إسبانيا وسنأخذ الطريق إلى فرنسا. خشيت ألا توافق مدام أنيط على تشغيله فيبقى عالة عليّ. أعدت له جواز سفره، وعندما دخل بيت النظافة اتجهت نحو السيارة وكدت أنطلق بدونه، لكني أشفقت عليه، فهو لا يعرف اللغة الإسبانية، وعلى ما يبدو ليس معه من المال ما يتدبر به أمره، ثم إنه يبدو أمامي كجمل وديع، لن يصدر عنه ما يسبب المشاكل. عدلت عن فكرة التخلي عنه، ورفعت زمار السيارة ليلتحق بي.

عندما وصلنا إلى نيم أخذته معي إلى شقتي فاستحم وغير ملابسه. هيأت طعاما تناولنا منه معا، على نفس المائدة، وقام بغسل ملابسه، ثم خرجنا فقصدنا المطعم. سألت وهيبة عن مدام أنيط فأخبرتني بأنها تلزم الفراش، وأنها كانت تزورها كل مساء لتقدم لها الطعام والدواء. تطلعت إلى منصور وسألتني:

ـ من هذا؟

أخبرتها بأنه مهاجر مثلي ومثلها جاء إلى فرنسا للبحث عن العمل. تأففت وقالت:

ـ هذا هو حال المهاجرين. إن كان أحدهم متزوجا يأتي بزوجته وأولاده، وإن لم يكن فهو يأتي بأبناء أعمامه وأخواله، يحسبون أن فرنسا هي جنة عدن أو جنة رضوان.

لم أرد عليها. هرعت إلى زيارة مدام أنيط ومعي منصور، وبعد أن رأته طلبت منها أن تقدم له عملا في المطعم فاعتذرت عن ذلك. لم يفهم منصور كلام مدام أنيط، لكنه أدرك أنه لن تشغله، مما جعلني أعده بالعمل كحارس لسيارات الزبائن التي تقف قبالة المطعم وأن يقوم بغسلها خلال الفترة التي يقضيها أصحابها في تناول الطعام، لكنه رفض، واعتبر هذا العمل مهينا، وتشبث بوعدي له بأن يعمل في المطعم. هدأته ووعدته بأن أجد له عملا مناسبا. بقي عالة عليّ، ينام في الصالون، وهو الأمر الذي جعلني أفقد حريتي في بيتي، وألجأ إلى غرفة نومي فأغلق بابها من الداخل.

تغير منصور، فبعد أن كان كالحمل الوديع أصبحيصرخ في وجهي ويتهمني بأنني قد نصبت عليه، ويطلب مني أن أعيد له ثلاثين ألف درهم التي هي نصف المبلغ الذي سلمتني إياه والدته، فالاتفاق تم على أن تكون ثلاثون ألفا لتهريبه وثلاثون ألفا أخرى مقابل حصوله على عقد للعمل. طلبت منه أن يهدأ في انتظار أن أجد له عملا، لكنه ظل يصرخ، وزاد هياجه، مما اضطرني إلى أن أهدده باستدعاء البوليس، فرد عليَّ بأنني إن دعوتهم فسوف يخبرهم بأنني أقوم بتهريب البشر.

وجدت أن الحل هو أن أعيد له الثلاثمائة ألف درهم، وأن أنتهي من علاقتي معه، وذلك ما فعلت، فقد وضعت المبلغ أمامه وطلبت منه أن يغادر الشقة وألا يعرفني إلى الأبد. لكنه رمى الأوراق المالية في وجهي وقال لي:

ـ اتركي المال معك.

سألته:

ـ وماذا تريد؟

قال:

ـ أنا أريدك أنتِ.

قلت له:

ـ أنا لن أكون لك.

شتمني وهددني بالضرب. عندما ترك المال وغادر الشقة قمت بتغيير مزلاج الباب وذهبت إلى عملي في المطعم. عندما عدت وجدت باب الشقة مكسورا ومنصور يجلس في الصالون. نظر نحوي وقال لي:

ـ هل تظنين أنك بهذه الطريقة سوف تطردينني؟

قلت له:

ـ المال قدمته لك وأنت رفضت أن تأخذه، وإن كان شيء آخر يدور في رأسك فأنا سوف أرسلك إلى السجن.

هجم عليَّ وضربني. صرخت. نادى الجيران على البوليس فأتوا وأخذوا شهادتي وشهادة الجيران ثم كتبوا محضرا وأخذوه.

قضى منصور شهرين في السجن، وعندما خرج منه أخذ يلاحقني في الشارع بالشتائم، ويهددني بالقتل، إلى أن هجم عليَّ بالضرب واختطف مني حقيبة يدي، فرفعت به شكاية إلى البوليس،ولم تصدر بحقه أية إدانة، لكوني

لا أتوفر على شهود عيان. بقي يطاردني، وذات صباحوجدته ينام على مقعد سيارتي الخلفي. عندما طلبت منه أن يخرج من السيارة شهر سكينا في وجهي وقال لي:

. بهذه السكين سوف أذبحك.

بقيت كلما خرجت من العمارة التي أسكنها لأذهب إلى مطعم مدام أنيط أجده واقفا ينتظرني. عرضت عليه مرة أخرى أن أرجع له الثلاثين ألف درهم، فرفض، وعندما سألته عما يريد قال لي:

. أريدك أنت. إذا أرت أن نتصالح فأعيديني للسكن في شقتك واتركيني أنال جسدك.

حذرته من أن يعود للنوم في سيارتي، وحينما وجدت أحد أبوابها مكسورا أتيت بمن أصلحه، لكن منصور كسره مرة أخرى وأخذ يعترض سبيلي ويتحرش بي، وذات ليلة جاء يطرق باب الشقة بعنف، وعندما لم أفتحه شرع في فرعه، لكن الجيران تدخلوا وأبعدوه عن العمارة.

أصبح يعترض سبيلي ويشهر سكينه في وجهي فضقت به ذرعا، وندمت لكوني قد أشفقت عليه فلم أتركه في المحطة الطرقية ليواجه مصيره.

خلال هذه الأيام التي كنت أواجه فيها مشكلتي مع منصور تدهورت صحة مدام أنيط، فكنت كلما زرتها لأقدم لها الطعام والدواء تطلب مني أن أبقى معها طويلا لتشعر بالأنس، فكنت أظل في بيتها إلى أن تنام فأغادر شقتها وأغلق الباب بالمفتاح الذي كانت قد سلمته لي ثم أخرج للشارع لأواجه الخوف من منصور، الذي كان يتربص بي.

لم تعد مدام أنيط تقوى على النهوض إلا بمساعدتي. عرفت أنها لم تقدم لي مفتاح بيتها إلا لكونها كانت تخاف من أن تموت وحيدة، وزاد يقيني بذلك عندما طلبت مني أن أبقى لأبيت معها كل ليلة، فأخذت كلما أنهيت عملي في المطعم آتي إلى غرفتها فأطعمها وأقدم لها الدواء، وأصغي إلى حديثها عن طفولتها وحياتها الأسرية. لم تقل شيئا عن الوصية التي وعدتني بها، وأنا لم أستطع أن أذكرها بذلك.

خرجت ذات يوم من المطعم فوجدت منصور ينتظرني. انهال عليَّ بالضرب، وانتزع مني حقيبة يدي. أقبل شاب من بعيد فتدخل لمنعه. شهر منصور سكينه في وجه الشاب، لكنه انتزعها منه. نشبت معركة بينهما كال خلالها الشاب الضربات لمنصور، ثم انتزع منه حقيبة يدي وأرجعها إليّ. وقف منصور ذليلا، والدم ينزف من إحدى عينيه. هدده ذلك الشاب بالقتل إن عاد ليعترض سبيلي.مشى منصور، فشكرت للشاب شهامته، وافترقنا، لكني في الغد وجدته هو نفسه ينام في المقعد الخلفي لسيارتي.رأيت من الخارج وجهه وملامحه الريفية، ثم طرقت الزجاج، فرأيته يصحو وينظر إليّ بكثير من الدهشة، ثم فتح باب السيارة ووقف أمامي ثم قال لي:

ـ منصور لن يظهر مرة أخرى في هذا الحي.

قلت له:

ـ لكنك منعته من النوم في سيارتي ثم أخذت تنام فيها.

ضحك وقال لي:

ـ يا مدام، القوي يغلب الضعيف.

سألته عن اسمه فقال:

ـ مُحَمَّد بو فراح.

ثم قال لي:

ـ آ مدام ربيعة أنا أعرف عنك كل شيء. منصور حكى لي قصته معك. وأنا كنت أرقبك وأنت تخرجين من العمارة التي تسكنين إحدى شققها وتذهبين إلى المطعم.

رجوته ألا يعود للنوم في سيارتي، فطلب مني أن أحافظ على هدوئي، وقال لي:

ـ لن أترك النوم في سيارتك إلا إذا وفرت لي غرفة في فندق من خمس نجوم.

سألته:

ـ هل سبق لك أن قضيت ليلة في فندق من خمس نجوم؟

ضحك وقال لي:

ـ نحن المهمشون نسمي أماكن نومنا تحت القناطر، أو عند أدراج العمارات، فنادق من خمس نجوم.

تذكرت اقتحام منصور للشقة وتهديده بأن يذبحني وشعوري بالخوف الذي كان يمنع النوم من عيني. وجدت أن مُحَمَّد بو فراح يستطيع أن يحمينيفدعوته لأن يتقاسم معي السكن، واشترطت عليه ألا يرافق أحدا إلى الشقة، وأن يأتي إليها قبل التاسعة مساء، من أجل النوم، وأن يغادرها قبل

السابعة صباحا، وألا يأتي بالخمر إلى الشقة. قال لي:

ـ أقبل شروطك، ومن ناحية منصور، نامي مطمئنة، على جانبك الأيمن.

أخذ مُحَمَّد بو فراح يأتي كل ليلة إلى الشقة لينام في الصالون، ثم يغادرها في الصباح. أخذت أنام وأنا أشعر بالطمأنينة. طالت إقامته معي. أنا نفسي لم أعلم أنه صاحب قناة على اليوتيوب إلا عندما شاهدت الفيديوهات التي تحدث فيها عني. عندما شاهدت الفيديو الذي تحدث فيه طفولته وهجرته إلى فرنسا قلت إن من حقه أن يعبر عن تجربته في الحياة، وعندما نشر الفيديو الذي يصف فيه أعمال السرقة والاعتداء على الغير، واقتحام المتاجر بالسلاح الأبيض، حاولت أن أُبصره بخطورة ما يقوم به، لكنه ذاق المال الذي يأتي دون كد وعرق. أما وأنا أتحدث عن علاقتي معه، فقد ذكر عنها الكثير، من وجهة نظره، وأنا سبق أن تزوجت عاملا في البناء هو عبد الرحمن البيضاوي، لكني لا أستطيع الزواج من لص محترف، ثم إن أي عاطفة لم تربطني به ولا بمنصور الهداف، فقد جاءت بهما الصدفة إلى حياتي واحدا بعد الآخر. ما حكاه عن الجن في الفيديو الذي سماه "ربيعة وإسحاق" هو وجهة نظره التي أراد من خلالها أن يحصل على الكثير من المشاهدات، وهو ما يمكن أن يحدث للعديد من النساء، فكم من ربيعة مسها الجن؟وأنا شاهدت فيديو آخر تتحدث فيه امرأة عن كونها تتزوج من رجلين، أحدهما إنس والآخر جن.

عندما زرت فاسا في المرة السابقة وقد تركت مدام أنيط في عهدة وهيبة، رأيت أن أزور صديقتي مني، فأخبرتني والدتها بأنها تزوجت وسافرت

مع زوجها إلى باريس، ثم قدمت لي رقم هاتفها. تلفنت لها. ردت عليَّ. كان أول ما سألتني عنه هو علاقتي مع ميشيل أرنو،فأخبرتها بأننا قد انفصلنا، وأنني أعيش في نيم. حكت لي عن زواجها من شاب مغربي وأنهارحلت معه إلى باريس. اقترحت عليَّ أن أزورها في باريس، فكان اللقاء حارا معها. تبادلنا العناق والقبل، وأخذتني من يدي ثم ذهبنا إلى بيتها. قدمت لي الشاي والحلويات، وغمرتنا ذكريات تلك الأيام التي كنا فيها تلميذتين في ثانوية الشريف الإدريسي، فاستعدنا ما وقع لنا مع الضابط جلول مرزاق. خرجنا للتجول. مضينا في (شارع سان جرمان) ننطلق ونتحدث ونقف أمام واجهات المتاجر. رأيت يهوديا يرتدي معطفا أسود ويعتمر قبعة سوداء، وعندما التقت عيناي مع عينيه غمز لي فتوقفت عن الخطو وأمسكت بذراع مني. رأيت وجهه يتحول ويصبح على هيئة مسوخ. صرخت. سألتني مني:

. ما بك؟

سألتها بدوري:

. هل رأيته؟

سألتني:

. من هو؟

أخبرتها والفزع يستبد بي بأنه قد غمز لي وفتح ذراعيه ليدخلني تحت برنسه الأسود. بدت مني حائرة وهي تلتفت حولها. أخبرتها بأنه يهودي يعتمر قبعة سوداء ويرتدي برنسا أسود. قالت لي:

ـ لقد مر بجوارنا وذهب إلى حال سبيله.

التفت نحو الخلف فرأيته هو الآخر يلتفت نحوي ويغمز لي. لم تصدق منى ما رأيته. في تلك الليلة، وأنا أبيت في بيتها، رأيته خلال نومي وهو يقترب مني ويطبق عليَّ بجسده حتى بدأت أختنق، وبيده أمسك بصدري وأخذ يقبلني. نهضت وأنا أبصق ما في فمي من طعم مر. في تلك الليلة، أدركت أنني كنت أحلم بكابوس. لكني في الليلة الموالية رأيته في الظلام وهو يكشف عن أظافره وأنيابه الطويلة. كتمت صرختي حتى لا تستيقظ منى وزوجها. أضأت ضوء الغرفة فلم أعد أراه أمامي. تذكرت وجهه الذي تحول إلى مسوخ. اقشعر بدني. حاولت أن أطمئن نفسي. أطفأت الضوء ووضعت رأسي على الوسادة.رأيته يعود ليجثم فوق صدري. دفعته نحو الوراء. وجدت جسده ثقيلا وكأنه من حجر، ثم دفعته عني فوجدت أنه قد أصبح مجرد فراغ.

في الصباح ودعت مني وعدت إلى نيم. أصبح وجه إسحاق يطل عليَّ من الفراغ كلما دخلت غرفة نومي، وكان يتحول إلى مسوخ. أضيء الأباجورة وأجلس ناظرة إلى الفراغ وهو يظهر مرة ومرة يختفي. رغم حالة الرعب التي تسيطر علي، لم يكن بإمكاني أن أخرج من غرفة النوم وأحكي لمحمد بوفراح ما أشاهده، فقد كنت أعرف أنه لن يصدقني، كما أنني لم أرغب في أن أقحمه في أمر من أموري. وحقيقة الأمر أنني كنت أشعر برعب شديد عندما يظهر لي إسحاق، بينما لم تكن هناك أية مضاجعة معه، فذلك من مبالغات مُحَمَّد بو فراج في الفيديو.

البقية معروفة، في هذه الزيارة لفاس بحت لابنة خالتي لالة زينب بما أعانيه، وهي بدورها أخبرت زوجها السي الطايع، وكان أن اتصلبالفقيه السي جامع أبيو السوسي ليخرج مني الجن.

في ذلك اليوم لقيت العذاب. كان السي جامع يعذب إسحاق ليخرج من جسدي، يسوط الأرض بسوط ثم يسوطني به معتقدا أنه يسوط إسحاق. كم من مرة دعاه لأن يخرج، وهدده بالحرق، فلم يخرج. كنت أنظر إلى وجه السي جامع النحيل البارز العظام، وإلى عينيه الضيقتين وقد جحظتا وابيضَّ بؤبؤاهما، وهو يقرأ التعازيم، وأتوسل إليه لكي يتركني، فكان يزيد في القراءة ويهدد إسحاق بالحرق. آخر ما رأيته هو فم السي جامع الذي كان يفتحه ويغلقه، ثم دخلت في الغيبوبة. هل خرج إسحاق من جسدي أم لم يخرج؟ لا أعلم! ذكرت لي لالة زينب أنني بعد أن أغمي عليَّ حملتني بمساعدة السي الطايع إلى الفراش، ورشت على وجهي ماء، فعاد إليَّ وعيي. نظرت إلى آثار السياط على ساقيّ، وأخذت أبكي. قدمت لي لالة زينب شربة خضر، ثم نمت نوما عميقا. في الصباح سألت السي الطايع هل خرج إسحاق فلم يرد عليّ".

رأيت الاصفرار يعلو وجهها، والعرق يتصبب على جبينها. أوقفت التصوير. قدمت لها قارورة الماء. عبت منها. وَسَّعَتْعينيها وهي تنظر إليّ. ابتسمتُ لها. قالت لي:

- لا تقلق آ السي عبد الوهاب. أنا بخير.

قلت لها:

ـ إنها قصة حياة. تختلف عن حيوات كل الناس.

قالت:

ـ لأنها قصة حياتي أنا، وحتى حيوات المهاجرين الآخرين، لكل واحدة منها قصص تختلف عن قصصي وحكاياتي.

أشفقت عليها. أمسكتها من ذراعها وأخذتها الشقة التي أقيم فيها. قدمت لها عصير فواكه. بدا عليها الانتعاش فقالت لي:

ـ أرأيت كيف أن العلاقات مع الآخرين تأتي إلينا بمجرد الصدفة، دون أن نسعى إليها أو نختار الآخرين الذين نرغب في أن تكون لنا علاقة معهم؟

قلت لها:

ـ رأيت.

قالت:

ـ ها قد قمتَ بالتصوير، فما الذي سوف نفعله بهذا الفيديو؟

قلت لها:

ـ سبق أن ذكرت أن ميشيل كان يرغب في أن يجعل منكِ نجمة في عالم السينما.

سألتني:

ـ ماذا تقصد؟

قلت لها:

. هذا الفيديو يتوفر على مادة حكائية تصلح لأن تصاغ في سيناريو لشريط سينمائي، وأنتِ تمثلين دور ربيعة.

ابتسمت وقالت:

. فات الأوان!

خرجنا من العمارة. دعوتها لأن ترافقني إلى "دارة جلجل".

في الدارة طلبت منها أن تجلس في الصالون الذي نستقبل فيه الضيوف. دعوت أحد العاملين وطلبت منه أن يأتيها بشراب البابونج المهدئ للأعصاب. عندما أقبل علينا، رأيته يتطلع إلى قامتها الفارعة وأناقتها المتناهية، ثم تباطأ في الذهاب وهو ينظر إليها. عرفت أنهاكما تبدو جميلة في عينيّ فهي جميلة في عيون الآخرين.

تركتها تستريح لبعض الوقت، ثم أخذتها إلى جولة في مرافق الدارة الغرف الملكية والحمام البلدي والمطبخ والمكاتب والحديقة. أبهجها ما رأته في الدارة. عندما دخلنا مكتب مروان ونسيمة قدمتها لهما فأخذا يتطلعان إليها وكأن كائن غريب. قدرت أن ما يدور بخلدهما هو تلك المكالمة المزعجة، التي رأياني أتذمر منها. عدنا إلى الصالون. عندما استوت في جلستها كنت قد حضرت كل شيء، فجاءت المكلفة بالحمام البلدي وأخذتها إليه فغسلت جسدها ثم سلمتها إلى من ألبستها ثوبا خفيفا من حرير، فأخذتها بدورها إلى صالون الحلاقة، وهناك قامت المسؤولة عن الصالون بتمشيط شعرها وتزيينها كما تزين العرائس، ثم أخذتها إلى غرفة

الملابس فألبستها قفطانا رمانيا ظهرت به كعروس، فأتيت بها إليَّ وأنا أجلس في الحديقة. التقطت لها عدة صور. بدت فرحة. قلت لها:

. أيتها العروس، متى سوف تزفين إليّ؟

قالت والحياء يظهر عليها وهي تخفض رأسها:

. متى تحب.

قلت لها:

. أنا لن أزفك إلي إلا بعد كتابة عقد الزواج وإقامة حفل عرس يشارك فيه كل العاملين في الدارة، وأهلي وأهلك.

قالت:

.كما تحب.

سألتها:

. والآن، ما الذي تنوين أن تفعلي لكي تصفي أمورك؟

قالت:

"سأعود إلى نيم بالسيارة، وسأبيعها هناك، كما سأبيع أثاث الشقة وأسلمها إلى الوكالة العقارية التي اكتريتها منها. سأزور مدام أنيط وأحرص على أن أجد امرأة تقوم بشؤونها، بذلك سوف أودع أيام الغربة، وزمن الرعب، ووجوه رجال لم أحبهم ولم يحبوني وإنما طمعوا في جسدي، ما عدا ميشيل الذي أخطأت في حقه فطربي من جنته، أما أنت فلن أكرر الخطأ

معك، لأنك نبيل كما كان ميشيل نبيلا. سامحني إن كنت صريحة وأسمي الأمور بأسمائها".

سألتها:

.كم يكفيك من الوقت لذلك؟

قالت:

. عشرة أيام.

سألتها:

. هل أرافقك؟

قالت:

. لا تخف عليّ، فقد تعودت العيش مع الذئاب.

نظرت إليها نظرة لها معنى وسألتها:

. أحقا تقدرين على مقاومة الذئاب؟

ابتسمت، وقالت:

. أقدر، وكما أنت آ السي عبد الوهاب تخاف عليَّ فأنا أخاف على نفسي.

أعجبتني شجاعتها. في الغد سافرت إلى نيم. في غيابها قمت أنا بإعداد الشقة البيضاء لتكون مسكنا لنا أنا وربيعة، بعد أن نتزوج.

خلال الطريق كنت أطمئن عليها، وبعد وصولها إلى نيم اتصلت بي

بالهاتف، وقالت لي:

"السي عبد الوهاب. لم أتوقع ما وجدته في انتظاري في نيم. أول ما دخلت الشقة وجدت بابها مكسورا وأثاثها منهوبا، وعندما ذهبت إلى المطعم واجهتني فاجعة موت مدام أنيط. أخبرتني التونسية وهيبة، التي تركتها تقوم برعاية مدام أنيط بأنها فارقت الحياة قبل ثلاثة أيام، وقد تركت وصية تورثني فيها المطعم. تبادلت العزاء مع العاملين، وشعرت بحزن عميق لكوني فقدت امرأة ساندتني وأنا في وضع يدفع بي نحو الانهيار. كانت تحبني وكنت أحبها. تبادلنا المحبة الخالصة، وعندما كنت أقوم بمآنستها وإطعامها وتنظيفها يراودني الشعور بأنني أقوم بذلك لأم لم تلدني. السي عبد الوهاب. أنا أذرف دموعا لم أذرفها يوم ماتت أمي التي ولدتني".

قلت لها:

ـ البقاء لله. كلنا للموت. لا تجزعي!

قالت:

"البارحة زرت قبر مدام أنيط، واليوم أفكر في أن أبقى لبعض الأيام من أجل تدبير وضعية المطعم. سوف أتصل بالموثق ليسلمني نسخة من الوصية وأخرى من المحافظة. سوف لن أغير اسم المطعم، فهو يحمل اسم "مطعم أنيط" منذ أن أسسه والدها، وكان ذلك خلال ولادتها فسمى المطعم باسمها. أفكر في أن أكلف شعبان القسنطيني بتسييره، فهو رجل أمين، وأن أعيد النظر في عدد العاملين. سأجدد عقود العمل معهم، باسمي، وسأترك الأمر كما كان عليه، لأن كل تغيير في هذه الآونة قد يؤدي إلى فقد الزبائن.

زرت البتول في بيتها فهنأتني بالمطعم، وحينما سألتها عن أخيها عبد الرحمن أجابت بأنها لا تعرف عنه شيئا. سألتها هل سأبقى لا أنا مطلقة ولا أنا عروس، فقالت لي إن ألف رجل يتمناني، واقترحت عليَّ أن أطلب الطلاق من عبد الرحمن لتزوجني من أخ آخر لها في المغرب، وهو سيأتي ليتولى تسيير المطعم".

سألتها:

ـ ومُحَمَّد بو فراح؟

قالت لي:

ـ لن نراه إلى الأبد. أنا أرجح أنه هو من أفرغ الشقة من الأثاث. هو أو منصور الهداف، فكلاهما عاش على السرقة.

في طريق عودتها إلى فاس أخبرتني بالهاتف بأن كل أعمالها في نيم قد تمت، وأنها قد كلفت الجزائري الطيب بالمطعم وجعلته مسيرا له. مضى الوقت طويلا فأصبحت قلقا عليها، وكلما اتصلت بها بالهاتف أجده لا يرد. وضعت يدي على قلبي. حينما ردت على الهاتف أصابني الفرح، وسألتها:

ـ أين أنتِ الآن؟

قالت لي:

ـ أنا في الشقة، بجوارك.

قلت لها:

ـ تعالي. أحب أن أراك.

قالت:

ـ أنا في الحمام، وقد عدت مرهقة من السفر.

سألتها:

ـ ألا تحبين أن تري الأثاث الذي أحضرته للغرفة التي كانت بيضاء؟

قالت:

ـ أحب أن أراه في صباح الغد. كل هذا من فضلك آ السي عبد الوهاب. أنا سأستقر معك في فاس وسأجد المعنى لحياتي. تصبح على خير.

في الحقيقة، كنت أحب أن أطيل الكلام معها، لكني احترمت رغبتها في أن تستريح من تعب السفر. خلدت إلى فراشي وأنا أستحضر كل الصور التي تملكتها عن ربيعة ومعاناتها مع الرجال الذين عرفتهم، وتذكرت أنها قد سكنت في مخيلتي وفي أحلامي كما سكنت في وجداني، وإن كان شخصها قد فتنني فأنا لم أفتن بجسدها كما ذهب من افتتنوا به فهددوها بالقتل والاغتصاب، وإنما كدت أن أذهب حيث ذهب ميشيل أرنو في عشقها، لكني خشيت أن يقع لي معها ما كان قد وقع لي مع طليقتي رجاء بو جمعة.

***

في صباح الغد، كلمت ربيعة بالهاتف فلم ترد. طرقت باب الشقة فلم أجد منها أي جواب. احترت في أمرها. انتظرت أن تكلمني بالهاتف فلم تفعل. نزلت الأدراج وخرجت إلى باب العمارة فوجدتها على الرصيف مدرجة في دمائها وقد أصابتها الطعنة في القلب.

المحتويات